عباس محمود العقاد



الضاحك المضحك

لا سبيل ! . .

وصدق القرآن الكريم : كل علم هو علم الأسماء . والله علم آدم الأسماء كلها . لأنها هى العلم الإنسانى من مبدئه إلى منتهاه .

إلا أنه علم الإنسان .

وكل علم للإنسان يعرض له النقص من بعض نواحيه ، فإذا قال لنفسه : لابد لى من اللغة ! فلاينسى أن يقول لنفسه : نعم . وحذار من هذه اللغة ، فإن النفع منها للعقل عظيم جد عظيم ، ولكن الضرر منها غير قليل وغير مأمون .

من منافعها أنها تحصر المارد المنطلق فتحبسه فى القمقم المرصود مطيعا حيث يراد . .

ومن أضرارها أنها تحبس المردة الكثيرة فى قمقم واحد . فتنطلق مرة واحدة حيث يراد واحد منها ، وتنحبس مرة واحدة حيث نريد أن نطلق منها هذا وندع منها ذاك .

عودتنا اللغة أن نحسب كل اسم علما على شىء واحد ، وكثيرا ما يكون هذا الاسم كالقمقم الذى يحتوى فيه عشرات المردة بعلامة واحدة ، وما من شبه بينها غير تلك العلامة لضرورة التمييز والتقسيم .

تعودنا أن نسأل : ما العلم ؟ ما الفهم ؟ ما الحس ؟ ما الضمير ؟ وتعودنا أن نسأل : كيف نعلم ؟ ما وسيلة الفهم ؟ ولماذا نحس ؟ وما بالنا نصغى للضمير ؟

تعودنا ذلك ، وتعودنا أن نجيب بجواب واحد ، كأننا نسأل فى جميع هذه الأحوال عن شىء واحد .

وما نسأل فى الحقيقة إلا عن أشياء كثيرة تنبىء عنها كلمة واحدة .

ما نسأل فى الحقيقة إلا عن عشرين ماردا أو أكثر من عشرين ، يجمعهم القمقم الواحد الذى نشير إليه .

وفى سياق هذه الرسالة ـ رسالتنا عن حكمة جحا أمير المضحكين ـ نسأل كما تعودنا من كل كلمة : ما الضحك ؟

ولماذا نضحك ؟

وما الضحك بشىء واحد . .

وما نضحك بسبب واحد . .

وما نفكر فى الضحك على نحو واحد . .

ولكنها الكلمة التى لاغنى عنها ، ولا أمان منها كذلك ما لم نعرف سر الرصد المسحور .

وها نحن أولاً فى هذه الرسالة نعرف سر هذا الرصد فى كلمة واحدة ـ كلمة الضحك ـ لنعرف منها أمير المضحكين بين المضحكين ، ونعرف منها أضاحيكه بين أشتات المضحكات . .

الضحك ضحوك عدة إذا صح هذا التعبير ، وليس بضحك واحد ونحن نضحك لأسباب كثيرة ، ولسنا نضحك لسبب فرد لايتعدد ، ويوشك أن يكون لكل حالة من حالات ضحكتها التى تصدر عنها ولاتصدر عن حالة غيرها ، كأنما هى لغة كاملة على أسلوبها فى التعبير .

هناك ضحك السرور والرضا ، وهناك ضحك السخرية والازدراء ، وهناك ضحك المزاح والطرب ، وهناك ضحك العجب والإعجاب ، وهناك ضحك العطف والمودة ، وهناك ضحك الشماتة والعداوة ، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة ، وهناك ضحك المقرور وضحك المشنوج وضحك السذاجة وضحك البلاهة ، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار . .

بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكات ألوان لا تتشابه فى جميع الأحوال .

فالضاحك المسرور قد يكون سروره زهوا بنفسه واحتقارا لغيره ، وقد يكون سروره فرحا بغيره ، لا زهو فيه بالنفس ولا احتقار للآخرين .

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس لأنه يبحث عن تلك العيوب ويستريح إليها ولايتمنى خلاص أحد منها ، وقد يضحك من تلك العيوب لأنه ينفس عن عاطفة لايستريح إليها عامة بين إخوانه الآدميين ، ولا خاصة فى أحد يعنيه من أولئك الإخوان .

والضاحك من عيوب السخف والحماقة قد يضحك من السخيف الأحمق أو يضحك من الذى يحكيه فى سخافته وحمقه فيعرف كيف يحكيه ، وكلاهما باعث من بواعث الضحك مخالف لغيره فى أثره وداعيه ومعناه . .

* * *

هذه المسألة وضعت موضع التجربة العلمية بعد انتشار الصحافة ، وتنوع موضوعاتها ، واختصاص طائفة منها بموضوع الفكاهيات والمضحكات ، وتنافس الكتاب فى ابتداع فن جديد من أساليب الفكاهة والضحك ، كلما ألف القراء أسلوبا منها وسئموه أو اشتاقوا إلى غيره ، فظهرت الفوارق بين النكات التى تدعو إلى الضحك ، وتمايزت بأسمائها وعلاماتها ، وأوشك الكتاب الفكاهيون أن يتمايزوا بالتفوق فى كل باب من هذه الأبواب ، واستطاعوا أن يفرقوا بينها بالتعريفات أو بالحدود المفهومة . .

ولعلنا نطالب هؤلاء الكتاب بما ليس عندهم إذا سألناهم أن يرجعوا بهذه الفكاهات المختلفة إلى مصادرها من الطبيعة البشرية والعلل الفلسفية ولكننا نستطيع أن نعتمد على تجربتهم فى التنويع والافتنان ، لأنه عمل يزاولونه كل يوم ، ويعرفون خطوات الانتقال فيه من فن إلى فن ، ومن أسلوب إلى أسلوب ، ولم يكن هذا الاختلاف فى الأساليب إلا اختلافا فى التعبير والتنميق .

ومن أمثلة الاجتهاد فى التفرقة بين موضوعات الضحك والفكاهة كتاب مزاج الفكاهة The Humour of Humour لمؤلفه إيفان ايسار Evan Esar الذى اشتغل زمنا بكتابة الفكاهيات وتقسيمها وترتيب أقسامها . وأراد بكتابه هذا من عنوانه إلى خاتمته أن يكون تطبيقا لآرائه واختباراته ، لأن العنوان نفسه يشتمل لعبا بالألفاظ كاللعب الذى يدخل فى النكات الجناسية ، لأن كلمة « هيومر » بالإنجليزية تأتى بمعنى المزاج وتأتى بمعنى الفكاهة وتدل على أخلاط الجسم فى مذهب الأقدمين كما تدل على وسائل تعديل هذه الأخلاط بالدواء أو بتطبيب الخواطر وتنزيه النفوس .

ولاتحصى أفانين الضحك والفكاهة كما شرحها المؤلف فى كتابه ، ولكننا نشير إلى بعضها على سبيل التمثيل . وندع للقارىء أن يقيس عليها من تجاربه ما يشاء .

* * *

فمن هذه الأفانين « الملاحظة المزدوجة أو الملاحظة اللاذعة » ومثالها كلمة تقال عن الزواج من أجل المال : « أنه يصلح أبا لها بسنه ، وزوجا لها بثروته» أو كلمة تقال عن البخيل : « أنه يضع نقوده فى الحشية ليجد تحته شيئا يستند إليه» .

ومن هذه الأفانين « الآبدة » أو العبارة الشاردة ، والفرق بينها وبين الملاحظات السابقة أنها أقرب إلى المثل السائر الذى يسهل تعميمه ولا يخص أحدا بعينه . وأما الملاحظات السابقة فأكثرها يقال عن الأشخاص أفرادا بغير تعميم ويدور على شئونهم ولايدور على المواقف والأطوار .

ومن أمثلة النكتة الآبدة أو العبارة الشاردة أن الأخلاق طلاء تمسحه الخمر . وأن السن تخون أصحابها لأنها تدل على السنين . وأن الحكيم حين تقنعه حكمته بأن يتزوج يصبح الأحمق زوجا وله أبناء . وأن لابس النظارة « منظره بغيرها أحسن ونظره بغيرها أقبح ! » وأن الأمريكيين أحرار لأنهم « يأخذون » حريات كثيرة ! . .

ومنها اللغز ، وعماده على المغالطة . أو على جمع المتشابهات التى تختلف فى الحقيقة أبعد اختلاف .

ومثاله أن يسأل السائل : « لماذا وضعوا واشنطون على تل ؟ » فيجيب المجيب : « لأنه مات » .

أو يسأل السائل : « ما ذلك الشىء الذى يصنعه الرجل واقفا وتصنعه المرأة جالسة ويصنعه الكلب على ثلاث ؟ » .

والجواب : « المصافحة أو تحية السلام عند اللقاء » .

ومن أفانين الفكاهة الجناس اللفظى . وهو يشبه اللغز فى السؤال والتورية . .

يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الفلاسفة والمرايا ؟ » .

والجواب : « التأمل والنظر » !

أو يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الكتاب والشجرة ؟ » .

والجواب : « كلاهما له ورق ! » .

أو يسأل السائل : « ترى هل يحاسب الرجل على قتل الوقت إذ حطم الساعة ؟ » .

والجواب : « كلا ! إذا ضربت الساعة أولا » .

ومن هذه الأفانين المساجلة والمحاورة . وقد يكون السائل فيها هو المجيب .

تقول لى : « لماذا تشرب الخمر ؟ . . قل لى ماذا تقترح أن أصنع بها ؟ » .

وتسألنى : « أى الدجاج أطول رقادا ؟ كيف ؟ ألا تعلم ؟ .. الذى مات !» ..

ومنها الظن المختلف وهو يتوقف على الموقف ، وتعدد المشتركين فيه ، ووجود اللبس الذى يدعو إلى اختلاف الظنون ، ومثاله قصة عن أربعة فى مقصورة قطار : فتاة حسناء ، وامرأة عجوز ، وكهل فرنسى ، وضابط ألمانى أثناء احتلال الألمان باريس . ودخل القطار نفقا فسمع فى المقصورة صوت قبلة وصفعة ، ثم خرج القطار من النفق وهم صامتون وعلى وجه الضابط الألمانى أثر صفعة . فقالت المرأة العجوز لنفسها : « ما أطهرها من فتاة » وقالت الفتاة الحسناء لنفسها :« عجبا له . يقبل العجوز ولايقبلنى ؟ » . وقال الضابط الألمانى : « ياله من فرنسى خبيث .. غنم القبلة ، وغنمت أنا الصفعة ! » وقال الفرنسى : « لقد نجوت بها . قبلت ظاهر كفى وصفعت الألمانى ، ولم يتهمنى أحد » !

ومنها النادرة ، وهى نكتة لابد لها من قصة تتعلق بصناعة أصحابها أو بعملهم وقواعده المتعارف عليها : كان مارك توين - الكاتب الفكاهى المشهور ، يعمل فى احدى الصحف ، وتكاد الديون تستغرق مرتبه ، وكان من عادته أن يهمل كل إنذار يأتيه من صاحب دين . واتفق يوما أن كاتبا من مساعديه كان إلى جانبه ، وهو يهم بأن يلقى بعض هذه النذر فى سلة المهملات . فنبهه الكاتب قائلا : « انتظر يا سيدى . فإن فى ظهر الورقة كلاما يقول فيه صاحب الدين أنه سيقاضيك إن لم تسرع إلى السداد » . فقال له مارك توين كأنه ماض فى عمله : « ألا تعلم يا صاح أن الورقة التى تكتب على وجهين تهمل فى هذا المكان ؟! » .

* * *

ومنها الكلمة التى تقال وتفهم على معنيين . أحدهما يسر والآخر يزعج أو يخيف . وتشبهما كلمات الجناس كلما دلت على نقيضين .

يقول الرجل لزميله فى بلاد النيام نيام أكلة البشر : « أن الزعيم يريدك للغداء » .

أو يقول فرنكلين وهم يكتبون وثيقة الاستقلال : « يجب أن يتعلق بعضنا ببعض وألا تعلقنا على انفراد » .

أو يقول الشيطان : « الفضيلة فى الوسط » . وهو يجلس بين رجلين من رجال السياسة !

أو يقول قدح الماء للبرشامة : « تقدمى وأنا بعدك » .. وفيها مثل لظاهر التحية وباطن الاشتراك فى البلاء !

أو تقول الفتاة لمن يغازلها : « أنا كالقاطرة .. إن لمستنى صرخت» !

ومما أحصاه الفكاهيون المعاصرون من أساليب التعبير الفكاهى أسلوب القلب والعكس . ومن أمثلته : « أن الحب يذهب بالزمن وأن الزمن يذهب بالحب » ومنها : « أن بعضهم يحب أن يشاهد الصور المتحركة . وبعضهم يشاهد الصور المتحركة ليحب » ومنها : « أن الإنسان يخلق المتاعب وأن المتاعب تخلق الإنسان » ومنها : « أن من يتعمق إلى أساس الأمور ترفعه الأمور إلى الذروة العليا » ومنها : « ليس الضحك بداية سيئة للصداقة ولكنه نهاية حسنة » .

وتكرار الكلمة فى مواضعها فن من فنون الفكاهة . كتكرار ذكر الذكاء فى هذه العبارة :

« الفتاة الذكية أذكى مما يبدو عليها لأن الفتاة الذكية لاتبدى ذكاءها » ..

أو هذه العبارة : « غير المتوقع يقع أحيانا حين لاتتوقع من المرء ما هو خليق أن يقع منه » .

أو هذه العبارة : « علينا أن ننسى أنفسنا لنشعر بالسعادة . ولكننا لانسعد إذا نسينا أن ننسى أنفسنا » .

والنسيان المعهود فى العلماء والمعلمين يضحك أو يحسب من أسباب الفكاهة . وتروى لذلك قصص كثيرة هذه أمثلة منها :

« جلس أستاذ فى مكتبه بالمنزل وهو فى قلق شديد على زوجته التى أدركها المخاض . وإذا بقريبة له تقتحم المكتب لتبشره بولادتها وتصيح به : «إنه ولد» .. ويكون قد ذهل عما حوله فيسألها : « وماذا يريد ؟ » ! .

وذهب أستاذ إلى طبيب فقال له : « اخرج لسانك » ثم قال له : «لسانك فى حالة حسنة ولكن ما هذا الطابع الذى عليه ؟» .. فابتسم الأستاذ وقال : « أهو هناك وأنا أحسبنى وضعته على الغلاف ! » .

وأكذوبة ابريل وما جرى مجراها فن من هذه الفنون الفكاهية . يقول مارك

قال الرئيس : « أنائم فى أول النهار ؟ » .

قال الموظف « اليقظ » : « على رسلك يا سيدى الرئيس . ألا أستطيع أن أغمض عينى لحظة للصلاة قبل بدء العمل ؟ » .

* * *

ويذكرون من ضروب الضحك خيبة الحيلة وارتدادها على صاحبها . أو ظهور الخديعة على من يفرط فى الذكاء فلا يلبث أن يبدو لنفسه ولغيره كأنه مفرط فى الغباء .

دخل رجل على طبيب فى « عيادته » فاعتقد الطبيب أن الزائر مريض يطلب العلاج ، وأراد أن يوحى إليه بمقدار أجرته فى غير مساومة ، فعمد إلى التليفون وأداره وراح يقول لمحدثه المزعوم : « نعم ! أنا الدكتور جونسون ! إننى مشغول جدا .. تسأل عن القيمة المطلوبة ؟ .. إنها كما أخبرتك خمسمائة ريال .. وأنت تذكر هذا ؟ .. حسن .. إلى اللقاء إذن ! » .

ثم وضع سماعة التليفون والتفت إلى الزائر متسائلا : « ماذا أستطيع أن أصنع لك ياسيدى ؟ » .

فأجابه الزائر : « لاشىء . إننى موظف مصلحة التليفونات الذى طلبته لإصلاح تليفونك » !

وكان موظفان يعملان فى مكتب واحد . يفرغ أحدهما من عمله نحو الساعة الرابعة كل يوم ، ويبقى الآخر بعد ساعتين أو أكثر لإنجاز عمله . فسأل هذا صاحبه ذات يوم : « كيف تنجز عملك فى هذا الموعد ! » قال صاحبه : « إننى لا أنجزه أيها الزميل ، ولكننى كلما صادفت مسألة معضلة كتبت على الورقة : يعرض على مستر سمث . ولابد أن يكون فى هذا المكتب « مستر سمث » واحد على كل حال » !

فخلع صاحبه سترته ونظر إليه متحديا وهو يقول كمن نشط من عقال : «الآن تبقى أنت للساعة السادسة .. أنا مستر سمث الذى تجهله . فاعرفه بعد اليوم » ! .

ومن أساليب الفكاهة الأقضية التى يسمونها بالأقضية السليمانية :

اتهم رجل بالسرقة . فأراد المحامى أن يجر القاضى إلى شرك يغريه بالوقوع فيه . وتحذلق فى دفاعه متعمداً فقال : « إنكم تعاقبون رجلا كاملا بعمل ذراع واحدة هى التى جذبت السلعة المأخوذة من وراء الضبان » ..

قال القاضى . وهو يظن أنه أوقع المحامى فى شركه : « حسن ! نحن نحكم على الذراع بالسجن ستة أشهر . ولينطلق صاحبها حيث يريد » .

فخلع المتهم ذراعه المصنوعة وهم بالانصراف !

والمفارقة إحدى هذه المضحكات ، وعلى نحوها نصيحة الناصح : «لاتقص على الأصلع حكاية يقف لها الشعر . فهو جهد ضائع» وعلى نحوها تحذير المحذر : « لاتقتل الرجل الذى قبل زوجتك اليوم ، فإنك لم تقبلها منذ سنة !» .

ويأتى الضحك من تناقض المعانى الكثيرة فى هذا التحذير .

فمنها أن الرجل الذى قبل الزوجة لقى عقوبتها التى تساوى القتل .

ومنها أنه قام بواجب أهمله الزوج .

ومنها أنه لازم فى المستقبل .

ومنها أشباه ذلك كثير ...

وعلى نحوها : « أن غاية الكسل أن تستيقظ عند الفجر لكى تجد وقتا طويلا للدوران » .

والصورة الهزلية ، فى الكلام أهم هذه المضحكات ، ومن هذه الصور أن فلانا بلغ من طول وجهه أن الحلاق يتقاضاه أجر الحلاقة ضعفين ، وأن فلانا بلغ من ضخامته أن ظله وقع على رجل فمات ، وأن فلانا بلغ من طوله أنه يصعد على كرسى ليغسل أسنانه !

وسرعة الجواب مع المغالطة فيه لون من ألوان الفكاهة وتهيئة النفس للضحك ..

مصور له أولاد قباح .. يداعبه ناقد فيعجب له كيف يصنع أولاده بهذا القبح ويصنع صوره بذلك الجمال .

والمصور يجيب : « لاعجب ياسيدى . أولادى أصنعهم فى الظلام وصورى أصنعها فى النور » !

وتقول فتاة لزميلتها : « لقد رفضت الزواج من فلان . وهو منذ ثلاثة أشهر عاكف على الشراب » .

فتقول الزميلة وهى تصطنع الجد فى الجواب : « هذا الذى نسميه مبالغة فى إحياء الأفراح » !

وتهزأ سيدة من زميلتها المؤلفة فتسألها : « من الذى ألّف كتابك الأخير ؟ إنه بديع » .

وجواب المؤلفة من جنس السؤال : « سرنى والله أنه أعجبك . من الذى قرأه لك ؟ » .

* * *

وتعد « المقالب » من بواعث الضحك . وهى الأكذوبة التى توقع السامع فى بعض الغرم أو بعض التعب . دون أن يصحبها ضرر أليم . والمبالغة فيها كاختلاق أخبار النعى . والاعتدال فيها كالدعوة إلى وليمة . ولا وليمة ! أو تقديم أخبار وفيها دواء . . غير مطلوب .

ومن الفكاهة اتباع الحكمة بحكمة أخرى توافق مقدماتها ولاتخطر فى الحسبان . ومن أمثلتها أن الألفة فى الحب تولد الاحتقار . . والأطفال . وأن الفتاة التى تشبه الكتاب المقروء توضع مثله على الرف . وأن تفاحة فى اليوم تبعد عنك الطبيب . ولكن بصلة فى اليوم مفعولها أكيد . . تبعد عنك كل إنسان . وأن اثنين لازمان للشجار . ولازمان أيضا للزواج . وأن المال ينطق . . والمال يخرس !

والسخرية أحد هذه الألوان . ومن السخرية أن يقول القائل جادا كأنه يعنى ما يقول : ما بال فلان ينتقم منى كل هذا الانتقام ؟ إننى لم أحسن إليه كل هذا الإحسان ؟ » .

وذهب فتى إلى شباك البريد . فوجد الموظفتين فى شاغل عنه بحديث طويل عن زى فستان السهرة الذى كانت تلبسه إحداهما . فتأنق الفتى فى الوصف والرجاء . وطلب إلى إحداهما أن تتفضل باعطائه طابعا قرمزى الوسط وردى الحافة منقوش الأطراف والجوانب . ومشغولا كله ولا يساوى مع هذا أكثر من ثلاثة مليمات !

والمحاكاة باب من أبواب السخرية . تتشابه الأمثلة عليها . ويدخل فيها التهكم والمجاراة .

خلا أحد المدعوين بإحدى المدعوات فى سهرة الرقص فقبلها . واستجابت

لقبلته لحظة غير قصيرة . ثم قالت له بعد أن افترقت شفتاها وشفتاه : «أتعلم إنها أول قبلة رضيت بها فى حياتى ؟» فقال الفتى كأنه يجاريها : « نعم . لأنك على ما يظهر ورثت الشىء الكثير بغير تعليم » .

وتحدث بعض الجلساء فى دعوة عامة عن الثروة ووسائل جمعها . كأنه يوهم السامعين أنه من أصحابها . فأثنت إحدى الجالسات على سرعة فهمه . لأنه يعرف الكثير عن المكاسب مع قلة ما يكسب !

* * *

والنصائح المطردة . مع القياس الظاهر . مع استحالتها بعد التأمل اليسير . حد هذه الأقسام التى اصطلحوا على تقسيمها فى الصحافة الفكاهية . ومن قبيلها هذه النصائح :

قل لا لمن يهمون بالزواج .

وقل لا لمن يهمون بالطلاق .

وقل لا لمن يهمون بالموت .

وقل لا لمن يهمون بالولادة .

ويتمشى على أسلوب هذه النصائح الهازلة جواب رجل أصيب بالزكام وأشار عليه صديق بوصفة ناجعة . فقال له : « نعم : اليوم أعمل بوصفة جونس . وغدا بوصفة سميث . وبعد غد بوصفة براون . فإن بقيت منى بقية لوصفتك يوم الأحد فهو دورك !

وقد تطرد الوصايا التالية مع هذا النسق من النصيحة :

« لاتطرد الذبابة من جبهة امرأتك بطرقة !

« لاتقلق إذا علمت أن كل شىء يذهب فى الغسيل . حتى البدلة !

« لاتنتفخ وأنت تعلم أن الصفر أسمن الأرقام !

« لاتحمل هم الزبدة . إنك تصنعها من حشائش الأرض . متى تيسرت البقرة !

« لاتتردد فى بذل النصيحة . لا أحد سيسمعها

« لاتعمل بنصيحة . وأولها هذه » !

* * *

وعندهم فكاهة يسمونها فكاهة « قبل وبعد » مدارها على المقابلة بين هذين الطرفين فى مسائل الزواج على الخصوص . وهذه أمثلة منها :

« قبل الزواج تقبِّل الفتاة الفتى لتربطه . وبعد الزواج تربطه لتقبله .

« قبل الزواج يأخذ الرجل بيد المرأة حبا . وبعد الزواج يأخذ بيدها دفاعا عن النفس .

« قبل الزواج يقول الرجل لابد أن ينفذ أمرى فى منزلى أو أعرف السبب . وبعد الزواج يعرف السبب !

« قبل الزواج يسعى الرجل إلى المرأة . وبعد الزواج يسعى للمرأة !

« قلما يكون الرجل بالمزايا التى تراها فيه المرأة قبل الزواج ، وقلما يكون بالعيوب التى تراها فيه بعد الزواج .

« فى بعض البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل الزواج . وفى البلاد الغربية لايراها بعده ! » .

ويلحق بهذه الزوجيات تهكم المحدثات والمحدثين من بنات « الدقة القديمة » كما يقال فى مصر باللغة « البلدية » . . ومنه أمثال هذه المقارنة :

« البنت من الدقة القديمة تحمر إذا خجلت . وبنتها العصرية تخجل إذا احمرت !

« والبنت من الدقة القديمة كانت تذهب إلى المدينة وتقف عند جماعة الشابات المسيحيات . أما بنتها العصرية فإنها تذهب إلى المدينة ولاتقف عند شىء ! .

« والبنت من الدقة القديمة كانت تشعر بالإهانة إذا عرض عليها الشراب . وأما بنتها العصرية فتبلع الإهانة .

« والبنت من الدقة القديمة كانت لاتجسر على تناول يد فتاها . ولكن بنتها العصرية لاتجسر على تركها .

« والرجل من الدقة القديمة له رأس يصلح للحسابات . ولكن ابنه العصرى له عين تنظر إليها » !

وهم يصطلحون على تسمية إنسان مشهور ينسبون إليه الحكمة التى يخترعونها لساعتها . من قبيل قول الشرقيين « قال الراوى » عند إسناد الكلام الذى يعلم السامعون أنهم مخترعوه .

وأشهر هؤلاء الحكماء المختارين للإسناد الصادق والمدعى حكيم الصين كونفشيوس .

فمن كلامه المزعوم . قال كونفشيوس : « الرجل الذى يسوق بيد واحدة يصطدم بالكنيسة » .

وهم يعنون بذلك خطر الزواج . لأن الرجل الذى يسوق بيد واحدة يخاصر امرأة معه فى سيارة باليد الأخرى .

ومن كلامه المزعوم . قال كونفشيوس : « الفتاة التى لها مستقبل تحذر الرجل الذى له ماض » .

ومن كلامه : « الرجل الذى يغازل المرأة على المصعد ليس فى مستواها ! »

ومن الأضاحيك ضرب المزاح الفارغ الذى يشبه ما يسمى فى الزجل العربى الحديث بالدور المجنون .

يسأل السائل محدثه : « ألم أرك فى بلدة بفالو ؟ » .

فيجيبه محدثه : « لم أذهب قط إلى تلك البلدة » .

ويعود السائل فيقول : « ولا أنا ! » .

ويجرى الحوار بين اثنين على هذا المنوال :

- ماذا تصنع ؟
- أبحث عن ورقة ضائعة .
- أين سقطت منك ؟
- فى الشارع الثامن والثلاثين .
- لكننا فى الشارع الأربعين !
- نعم . أعلم ذلك . ولكن هنا نور !

والحكمة التى « يفلت » منها درسها محسوبة فى هذه الأضاحيك :

تقص المدرسة على الأطفال قصة الحمل الذى لم يسمع كلام أمه فأكله الذئب ، فيقول أحد الأطفال فى براءة أو فى خبث : « والحمل الذى سمع كلامها أكلناه نحن » !

أو يقول المدرس لتلاميذه الصغار : « إن العصفور المبكر يلتقط الدودة » . .

فيقول أحدهم : « والدودة المبكرة يلتقطها العصفور » !

ومن المفيد أن نلاحظ هنا أن هذه « التقسيمات » لاتبدو غريبة للقارىء العربى الذى ألم بعلوم البيان والمعانى والبديع . لأن الكثير منها مقرر بتعريفاته وأمثلته وشواهده فى تلك العلوم ، وما من قارىء عربى ألم بعلوم البلاغة بعض الإلمام إلا وهو يعرف التورية والمقابلة والمشاكلة . والهزل الذى يراد به الجد ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم . وتجاهل العارف . والإضمار فى مقام الإظهار ، وإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر ، والتشبيه الملفوف والمفروق ، والفصل والوصل . والقلب والالتفات والتغليب . والكناية والتحريف والتصحيف .

كل هذا مألوف للقارىء العربى من بلاغة لغته ، كما يألف من كتب الصناعة اللغوية جميعا محكم القول فى جوامع الكلم والفرائد والأوابد والمثل السائر واللحن الذى يحسب من الألغاز ، والألغاز التى تحسب من ضروب الرمز أو الإيهام والتعمية .

إلاأننا لم نشأ أن نطلق هذه التقسيمات والتعريفات على ضروب الفكاهة المصطلح عليها بين المشتغلين بالكتابة الصحفية وما إليها ، لأن مصطلحات الصناعة اللغوية وضعت فى لغة العرب لتمييز درجات البلاغة ومعانيها ، ولم توضع هذه المصطلحات الحديثة عند الغربيين لشىء من ذلك وإنما وضعت للتفرقة بين موضوع وموضوع من مادة الصحافة الفكاهية .

وأمر آخر يباعد بين هذه المصطلحات الحديثة وبين مصطلحات علوم البلاغة العربية . وذلك أن المصطلحات الحديثة لفنون الأضاحيك لم تزل على فجاجتها الأولى ولم تبلغ بعد من الدقة فى الأسماء والتعريفات والشواهد مبلغ نظائرها فى علوم البديع والمعانى والبيان . وقد يختلط بعضها لاتفاقه فى مصدر الشعور وأثره فلا يتم التعريف بينهما إلا بحكم العادة بين المشتغلين بعمل واحد يعرفون مواده وأجزاءه بالإشارة والنظرة العابرة ولايلزم أن يقيموا الحدود بينها بالفواصل المنطقية أو النفسانية .

على أن الاختلاف بين عناوين الفكاهات - ولو بحكم العادة - جدير أن نتوقف عنده وننظر ما يليه من التعريفات والتقسيمات التى ترجع إلى اختلاف فى أصول الموضوعات أو اختلاف فى طبيعة الشعور . وسوف يأتى الوقت الذى نميز فيه بين ضحكة وضحكة كما نميز بين كلمة وكلمة ، ونعنى

بذلك تمييز الفهم والتفسير ولانقصر الأمر على الشعور والتلبية النفسانية ، فإننا الآن نميز بشعورنا بين ضحكات مختلفات كما كان آباؤنا وأجدادنا يميزون بينها بتبادل الشعور والتلبية بين نفس ونفس ، وليس هذا ما يعنيه طلاب التمييز بين أفانين الفكاهات والمضحكات فى الدراسات العصرية ، سواء قصدوا من هذا التمييز تيسير العمل بين المشتركين فيه كما يتيسر للعاملين فى حانوت واحد أن يميزوا أنواعه بحرف مرقوم على الرف أو علامة منقوشة على الصندوق ، أو قصدوا من هذا التمييز أن ينفذوا إلى ينابيع الشعور المتعمقة فى النفس البشرية ، حيث تصدر المضحكات والمبكيات وتكمن أسباب الغرائب والمألوفات ، وما ينبغى لنا أن نزعم أننا نفهم نفوسنا حق فهمها ونحن نجهل الفرق بين ما يضحكها وما يبكيها وما يقع منها موقع الألفة أو موقع الغرابة فى أعمق الأعماق ..

وربما كان اسم « الضحك » مغريا بالاستخفاف منافيا للجد فى بواعثه ومعانيه ..

ولكن البحث عن أسباب الضحك جد كأصدق الجد الذى يعرفنا بنفوسنا كما يعرفنا بها أعظم العظائم وأفدح المحزنات . بل ربما كان الأمر « المحزن » يسير التعليل لأننا لانحار فيه ولا يخفى علينا أنه يرجع إلى حب السلامة وكراهة الضرر والإصابة . وربما كان لنا نحن الآدميين شركاء فى الشعور بالمحزنات بين الحيوانات العليا وبعض الحيوانات الدنيا . لأن الحزن عندها بمثابة رد الفعل الجسدانى لكل ألم وكل مكروه . أما الضحك فليس من سهولة التفسير بهذه المنزلة . ولاسيما الضحك الذى يتشعب ويتفرع وتتباعد مصادره من النفس أو تتقارب - مع التفرقة بينها فى الأسماء - حتى يلتبس موضوع منها بموضوع وعنوان بعنوان ..

هذه عوارض نفسية يختص بها الإنسان ولايشاركه فيها حيوان من الحيوانات السفلى أو العليا . بل يعتقد الكثيرون من علماء الأجناس البشرية أن القبائل البدائية من الناس لاتضحك ولاتدرك الضحك . وأن هذه الظاهرة المترقية فى سلم الإنسانية لاتضحك ولاتدرك الضحك . وأن هذه الظاهرة المترقية فى سلم الإنسانية لاتشاهد بين الهمج إلا بعوارض العصبية التى لاتدخل فى حيز الإرادة . كأنها ضحكة المقرور أو ضحكة المتشنج . وحتى هذه الضحكات التى تشبه العوارض المرضية لاتشاهد بين الهمج على كثرة

تجعلهم يلتفتون إليها ويسمونها بكلمة من كلماتهم القليلة . فهى والتخبط من المسرع عندهم سواء .

لا جرم يجد الفلاسفة غاية الجد فى النظر إلى الضحك وأسبابه منذ عهد بعيد . ولايجدون اليوم وغدا فى هذه الدراسة بين نفسانيين واجتماعيين ونقاد للفنون والآداب .

ونحن فى هذه الرسالة نريد أن نعرف « جحا » ونريد أن نعرف الإنسانية كلها بهذه المعرفة ..

* * *

وربما كان بعض ما تقدم من التعريفات مفيدا لنا فى وضع جحا بموضعه من الحياة الإنسانية حيث كانت فى كل مجتمع وكل حقبة وكل عنصر وكل قبيل . فإن بعض هذه التعريفات يرينا أن « جحا » ليس بالغريب المجهول فى بيئة من البيئات التى تضحك كما نضحك وتستغرب من نوادر جحا وبوادره ما نستغرب . وبعض الأمثلة التى تقدمت نستطيع أن ننسبها إلى جحا فلا تخالف فى معدنها ما ينسب إليه . وهذه إحدى العلامات على سريان الضحك مسرى اللغة بين بنى الإنسان . فهو كاللغة يؤدى لجميع الناس معانى مشتركة يتقاربون بها على تباعد المنازل والأجناس . وهو كاللغة يختلف بين وطن ووطن وبين جنس وجنس . كما يختلف بين قبائل وقبائل فى مناهج التعبير بين المتكلمين بلسان واحد فى أسرة واحدة .

وسنعرف « جحا » حقا حين نعرف لماذا يضحك الناس عامة بغير اختلاف . ونعرف لماذا يضحكون خاصة من شىء دون شىء . ومن إنسان دون إنسان ..

وسنجد « جحا » واحدا ولكنه « جحا » الناس أجمعين . لأن الناس أجمعين يضحكون منه وإن لم يظهر فى غير موطن واحد أو مواطن متشابهة تحسب كالوطن الواحد . لأن الإنسان حيوان ضاحك حيث كان . ولعله ضحك آلاف السنين ولم يفهم بعد أسباب الضحك على جليتها . وسنرى - بعد - مقدار ما فهمه ويفهمه .

وسنضحك من بعضها وهى صحيحة أو باطلة . فنتعلم من الضحك كيف نتلقى تلكم الأسباب .

لماذا نضحك؟

بعض الناس يحبون المتعة ولايعنيهم لماذا يستمتعون بها ، وبعضهم تتم متعته بها إذا عرف أسبابها .

قلت فى الكلام عن سارة وهمام من قصة سارة : « تتسرب إلى المنزل أنباء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة فى معظم الأيام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الأغانى ، أو يلعبان الدومينة قليلا ، وهى لعبة تحذقها سارة ، ويعتقد همام أنها أصح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة .. فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة ، وكل شىء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء ، وكل شىء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق إما مصادفة وإما صراع قلما يشبه صراع الحياة .. أما الدومينة ففيها حساب للمصادفة ، وفيها حساب للتدبير ، وفيها حساب لليقين ، وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب للغيب الذى تجهله أنت وخصمك ، والغيب الذى تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه أنت ، وللعيان الذى يعرفه كل من يشاء . ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما فى يديك .

« قالت سارة يوما ، بعد ما استعادته شرح فلسفة الدومينة للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : « أولا تستمتع بشىء إلا أن تكون له فلسفة » ؟

قال : « لا . أنا استمتع بالشىء ثم أبحث عن فلسفته ، وإننى لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس فى جميع جوانب فمه ولهواته ، كى لايبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه ، فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه وأستقصى معناه .. » .

وأقول فى صدد البحث عن أسباب الضحك أننى أشبه هماما هذه الخليقة . وأننى أحب أن أفهم ما أحسه وأن أحس ما أفهمه . وأننى جريت على ذلك فى البحث عن أسباب الضحك منذ بدأت الكتابة وتدوين الخواطر والأفكار بين الخامسة عشرة والعشرين . ولهذا أذكر هذه العادة فيما نحن بصدده . لأننى إذا مررت بما اعتقدته من أسباب الضحك قبل العشرين وبعد العشرين وفى خلال النظر والمطالعة والتجربة اليوم - تدرجت بهذه الأسباب فى أطوار طبيعية تعين على المقارنة والتتبع والوصول إلى النتيجة ..

كانت لى فى نحو السادسة عشرة مفكرة يومية أدون فيها خواطرى وتعليقاتى . جمعتها بعد ذلك باسم خلاصة اليومية وحذفت منها عند الطبع كثيرا من الخصوصيات التى ترتبط بتلك الخواطر لا أذكره الآن .

وأحسبنى قد كتبت فيها عن المضحكات أكثر مما بقى فيها بالنسخة المطبوعة . ولكننى لاحظت فيها أن المضحكات أكثر من الضحك وقلت بهذا المعنى فى الصفحة السادسة عشرة من النسخة المطبوعة :

« إن المضحكات ليست بالقليلة . ولكن الذين يحسنون صناعة الضحك هم القليلون . فليس من الضرورى أن نفتش عن الرجل من أمثال موليير لنغرب فى الضحك . فإن فى كل رجل من الذين تراهم ونعاشرهم موطنا للنقص . وفى كل عمل موضعا للكلفة والتصنع . . والوداع الناعم البال - ولو كان مغمورا بالشقاء ذلك الرجل الذى يعرف كيف يفطن إلى مواطن الغرور والرياء من أعمال الإنسان . فإنه لايطبق فمه مادام يفتح عينيه » . .

وهنا كنت أقرن أسباب الضحك بملاحظة النقص والادعاء والغرور والكلفة التى يحاول صاحبها أن يخدع الناس عن الحقيقة . وهى واضحة لمن يلتفت إليها .

ولا أذكر أننى تحريت الترتيب عند طبع الخواطر والمفكرات . ولكننى أجد فى الصفحة الثالثة والأربعين هذه الخاطرة عن الضحك . وفيها أقول إن «للضحك عدة أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الاغتباط بأنفسنا . أما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص الذى نكشفه فى سوانا . .

« ولما كان الانسان لايضحك إلا سرورا برجحانه فهو يضحك فى الأحوال التى رجحانه فيها معروف غير محدود . فالرجل المعروف المكانة ليس يضحك من تصرف الصعلوك الوضيع وإن كان مضحكا فى ذاته . إلا إذا كان يسخر من أهل طبقة ليباهى بطبقته أو من أهل بلاد ليباهى ببلاده .

« وقد يضحك الإنسان من نفسه إذا كان الاستهزاء لايناله وحده . . . فلما كان ملوك أوروبا وأمراؤها وسواسها وقوادها مجتمعين فى سنة ١٨١٥ فى فيينا وهم واثقون أنهم أحكموا الشبكة على بونابرت وقد جلسوا يصلحون ما أفسده ويعيدون ما درسه من معالم أوروبا - أعلن فى المجلس . . أن الرجل قد أفلت من جزيرة البا وأنه قد عاد ثانية إمبراطورا على فرنسا . فوجموا هنيهة ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأنما يقول كل منهم : إن هذا الكورسيكى لم يعبث بى وحدى ، بل عبث بنا جميعا » .

ويلى هذه الخاطرة عن الضحك خاطرة عن البكاء قلت فيها إن الإنسان «يبكى لغير ما يضحك له : يبكى حين يظهر به النقص والعجز ظهور لا سبيل إلى المداجاة فيه . يبكى فى المواضع التى يشعر نديها بالقهر التام ويتحقق له تجرده من الحول والقوة حيالها .

« فى تلك المواضع يقول المسلم متمثلا : لا حول ولا قوة إلا بالله . كأنه لايريد أن يكون ضعيفا إلا أمام الله الذى يتساوى الناس عزيزهم وذليلهم فى الضعف أمام حوله وطوله . والأطفال المستضعفون أكثر الناس بكاء لأنهم أقلهم اقتدارا . . على أن عدم البكاء لايفيد فى أكثر الأحيان القدرة على دفع المصاب ، فإن من أصحاب المظاهر والأبهة من يترفع عن البكاء ويتكلف الجلد والسكون حتى فى الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الإقرار بالانقهار على كل حال » .

الضحك والبكاء نقيضان

فى هذه الخاطرة حسبت أن الضحك والبكاء نقيضان . وأن الإنسان يبكى لغير ما يضحك له . ومدار الضحك والبكاء معا على الغبطة بالنفس أو نقيضها ، فإذا اغتبط الإنسان بنفسه ضحك وإذا شعر بالمهانة والنقص بكى . .

وليست هذه المقابلة بالصحيحة فى جميع نواحيها . إذ نحن لايضحكنا كل شىء لايبكينا . وقد يكون الشىء مضحكا ومبكيا كما يقول أبو الطيب :

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا

والأصح أن الضحك لغة تعبر عن كثير من الحالات كما قدمنا فى الفصل السابق . وليس من اللازم أن يقابله البكاء فى كل حاله . وقد قال الشاعر بيرون وغيره : « إننى أضحك لكى أبكى » . كأنما يقولون إن الضحك بدل من البكاء فى بعض الأحوال . ويشبه هذا من بعيد قولنا فى تلك الخاطرة أن بعض الناس يتكلفون الجلد والسكون حتى فى الفجائع الفدحة كأنهم يأبون الإقرار بالانقهار .

ونقول إنه شبه بعيد . . لأن الذى يضحك « لكى لايبكى » يضحك حقا ولايتكلف الجلد . بل يقدر على الضحك لأنه يكشف من أسبابه ما ليس يكشفه غيره . أو لأنه يوسع النظر إلى المسألة ولايحصرها فى أضيق حدودها .

فهو ضاحك لأسباب أوسع من الأسباب التى تبكى غيره . وإن لم تتناقض هذه الأسباب وتلك الأسباب .

وقد كان آخر ما دونته فى خلاصة اليومية عن الضحك كلمة فى الصفحة السادسة والثمانين . فحواها أن قوة الاستحضار فى الذهن لها شأن فى الشعور بالمضحكات وغيرها . . « فمن أهل هذا الخاطر السريع من تبلغ به قوة الاستحضار أن يستحضر أمرا مضى فيضحك أو يبكى كما كان الأمر قد وقع له فعلا فى ذلك الحين . . . » .

وفى ختام هذه الخاطرة أقول إن « الرحمة ليست إذن حيلة اخترعها الضعفاء لمصلحتهم كما افترض النيتشيون . ولكنها طبيعة من طبائع الإنسان . والفرق فيها بينه وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الإنسان لارتقاء تركيبه يأخذ الشبيه بالشبيه . وذلك مالم يصل إليه الحيوان » .

وفحوى هذه الآراء فى مجموعها أن الشعور بالمضحكات والمحزنات ملكة إنسانية وجدت فى الإنسان ولم توجد فى الحيوانات لأنه يدرك المشابهة ويحس بالتعاطف ويستدعى الخواطر من قريب أو بعيد .

ملكة السخرية

ولست أحصى تطور هذه الآراء خلال الفترة التى تلت طبع « خلاصة اليومية » سنة ١٩١٢ .

ولم أقصد خلال هذه الفترة إلى كتابة شيء أبسط فيه القول عن أسباب الضحك فى عمومه . وإنما كنت أعود على الموضوع كلما استدعاه التعقيب على مسألة تمت إليه . كسخرية أبى العلاء والصور الفكاهية فى المرآة من تأليف الأستاذ عبد العزيز البشرى رحمه الله .

فابتدأت القول عن ملكة السخر عند المعرى سائلا : «لم يسخر الإنسان؟»

ثم أجبت قائلا : « إنه ينظر إلى مواطن الكذب من دعاوى الناس فيبتسم . وينظر إلى لجاجهم فى الطمع وإعناتهم أنفسهم فى غير طائل فيبتسم . وهذا هو العبث . وذاك هو الغرور .

« فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر . بل هما جميع أبوابه كافة . وكل ما أضحك من أعمال الناس فإنما هو لون من ألوان الغرور أو ضرب من ضروب العبث ، وكثيرا ما يلتقيان . فإن الغرور هو تجاوز الإنسان قدره والعبث

هو السعى فى غير جدوى . ولايكون هذا فى أكثر الأحيان إلا عن اعتزاز من المرء بنفسه وتعد منه لطوره .

« والناس يعلمون ذلك بالبداهة . فهم يعلمون أن الغرور والعبث مادة الضحك وجرثومته التى يتفرع منها كل مضحك من الأعمال والأقوال . ويجربون ذلك كل يوم فى مداعباتهم لصغارهم وامتحانهم لقوة أطفالها ، يقبض الرجل كفه لابنه الصغير على غير شيء . فيأخذه بأن يفتحها ويعده بكل ما يجد فيه إذا هو قوى على فتحها ، فيجاهد الطفل فى ذلك ما يجاهد : يقوم ويقعد ، ويشتد ويحتد ، ويلتوى ويعتدل . ويرفع اصبعا بعد أصبع ، فإذا الذى رفعه قد عاد فأطبق مرة أخرى ، ويعييه الجهد فيركن إلى الملق والخديعة ، وهو فى كل هذا يحسب نفسه قادرا على أن يغلب أباه عنوة وقسرا أو يغلبه خديعة ومكرا ، وهذا هو الغرور .

« ثم تلين تلك القبضة فيفتحها فإذا هى خاوية وإذا بذلك العناء الذى أجهده وبهره قد ذهب سدى ، وهذا هو العبث ، ومن هذا وذاك تضحكنا الطفولة وتعجبنا غرارتها وكبرياؤها وتتخذها تسلية ولهوا . ولكن هل يضحكنا من الكبار شيء غير هذا ؟ وهل مهازل الحياة ومساخر التمثيل إلا صورة مكبرة من هذه اللعبة الصبيانية وسذاجة مركبة من هذه السذاجة البسيطة ؟

« وإذا كان هذا معدن السخر وأصل الدعابة فما أجد رجلا كصاحب رسالة الغفران أن يكون ساخرا ؟! بل ما أجدره ألا يكون له عمل فى الحياة غير السخر ؟! إنه رجل استخف بالحياة جمعاء ، وهانت عليه الدنيا بما وسعت ، فما من دعوى من دعاوى الناس تتنزه عن الغرور فى اعتقاده ، وما من غاية من غايات الناس لاتنتهى فى تقديره إلى عبث فارغ وخديعة ظاهرة : كلهم مغرور وكلهم عابث متعلق من الأقدار بمثل تلك القبضة التى يعييه أن يفض أصبعا منها . . . حتى إذا فضها أو خطر فى وهمه أنه فضها لم يجد ثم شيئا . أو وجدها ملأى بما يشبه الفراغ سخية بما ليس يختلف عن الحرمان . . وكلهم محتقب عدة لاتنجع ومتقلد سلاح لايصيب :

ورب كمى يحمل السيف صارما

إلى الحرب والأقدار تلهو وتسخر

لا . بل هبه وصل بسيفه الصارم وقاتل وظفر وسلم ، فماذا عساه يغنم ؟

أمله الثناء على الأفواه ؟ أو لعله عرش مملكة ؟ .. إن كان ذلك ـ وقل أن يكون ـ فلعمر أبي العلاء ما قصارى الثناء والسمعة ؟ ..

وما يبالي الميت في لحده ... بذمه شيع أو حمده

وما العروش والدول ؟ وما الملوك والأقيال ؟ فلكم غبر على هذه الأرض من جيل وزال من مجد أثيل وملك عريض طويل .

وكم نزل القيل من منبر ... فعاد إلى عنصر في الثرى

وأخرج من ملكه عاريا ... وخلف مملكة بالعرا

.... وهل نسينا أن القبر يضحك من تزاحم الأضداد ؟ فهكذا تتشابه الأمور فإذا الهزل كالجد وإذا الحلم كالعيان !

وشبيه صوت النعي إذا قيـ ... ـس بصوت البشير في كل ناد

لا بل هو كل شيء ككل شيء . هل العلم كالجهل والحق كالباطل والهدى كالضلال ..

وقد زعموا الأفلاك يدركها البلى ... فإن كان حقا فالنجاسة كالطهر

فعلام إذن يزعج الإنسان نفسه ؟ وبأي شيء يحفل ؟ وما اجتهاده في التدبير والتقدير وتغيير ما كان بما سيكون ؟ إلا أننا لنسعد ونشقى عبثا ، ونسعى ونسكن عبثا . ونرجو ونقنط عبثا . ونبكي ونضحك عبثا . ومن وراء ذلك كله هاتف يهتف بنا في غير رفق ولا رحمة :

تقفون والفلك المحرك دائر ... وتقدرون فتضحك الاقدار »

مرد النكتة

كانت كتابة هذا الفصل بعد طبع خلاصة اليومية بإحدى عشرة سنة ، وبعد كتابته بأربع سنوات عقبت على كتاب « في المرآة » للأستاذ البشري الذي يقول في مقدمته :

« إن مرد النكتة إلى خلل في القياس المنطقي بإهدار إحدى مقدماته أو تزيفها أو بوصلها بحكم التورية ونحوها بما لا تتصل به في حكم المنطق المستقيم . فتخرج النتيجة على غير ما يؤدي إليه العقل لو استقامت مقدمات القياس ... وهذا الذي يبعث العجب ويثير الضحك والطرب . فالنكتة بهذا ضرب من أحلى ضروب البديع . ولا يعزب عنك كذلك أن النكتة إذا لم

تكن محكمة التلفيق متقنة التزييف بحيث يحتاج في إدراكها إلى فطنة ودقة فهم خرجت باردة مليخة لا طعم لها في مساغ الكلام » .

وكان تعقيبي على مقدمة الأستاذ البشري « أنه على صواب في جزء واحد من أجزاء هذا التعريف وهو الذي يقول فيه إن الخلل في القياس المنطقي مضحك وأن التزييف والتلفيق داعية من دواعي السخرية . وأما الجزء الذي نراه على غير الصواب فيه فهو قوله أن النكتة هي التي تشتمل على الخلل أو على التلفيق والتزييف . لأن اشتمال النكتة على خلل في القياس يسقطها ويلحقها بالهذر والمجانة ، والذي نظنه نحن أن النكتة تضحكنا لأنها تفضح الخلل وتهتك الدعوى الملفقة وتطلعنا على سخافة العقول التي لا يستقيم تفكيرها ولا تطرد حجتها . ومن ثم تكون النكتة هي المنطق الصحيح وهي الحجة المفحمة وهي البرهان الذي يرجع بالبراهين في معرض الجدال .

« .. وقد يسأل سائل : ولماذا تضحكنا النكتة السريعة ولا يضحكنا القياس المفصل والفضيحة المبسوطة ! فجواب هذا قد يوجد في تعليل هربرت سبنسر للضحك وهو خير تعليل وقفنا عليه في كتاب المعاصرين ، ولا نقصد هنا إلا تعليل حركة الضحك الجسدية لا تعليل أسباب الضحك . فإن السبب الذي يذكره برجسون مثلا رجيح صالح لتفسير كثير من علل المضحكات ، ونعني رأيه الذي يذهب فيه إلى أننا نضحك من كل تصرف في الإنسان يشبه التصرف الآلي الخالي من التفكير ، ونحن مع هذا نقول أن التماس علة واحدة لجميع الضحك خطأ لا يؤدي إلى رأي صائب ، لأن الضحك وإن كان اسمه واحدا إلا أنه ليس بظاهرة واحدة حتى يكون له سبب واحد .

« ونعود إلى سبنسر بعد هذا الاستطراد فنقول إن الضحك عنده ينشأ من تحول الإحساس فجأة من الأعصاب إلى العضلات . فإن من المقرر في النفسيات أن الإحساس إذا اشتد وأخف على الأعصاب تجاوزها إلى العضلات فظهر عليها في حركة عنيفة أو رقيقة على حسب قوته واشتداده ، فإذا حبس الإحساس في طريقه فجأة تحول بغير إرادتنا من الأعصاب إلى أسهل العضلات حركة وأسرعها تأثرا وهي عضلات الوجه والشفتين ثم عضلات العنق والرئتين ، فتتحرك بالابتسام أو بالضحك أو بالقهقهة أو بالوقوف والاختلاج عند من يغلبه الضحك وتهتز له عضلات الجسم كله

والدليل على ذلك أننا نضحك إذا غلبنا الإحساس وتحول من العصب إلى العضل أيا كان الموحى به والباعث عليه . فنضحك من الغيظ والألم ونضحك الضحكة الهستيرية التي يفرج بها المكروب عن أعصابه الكظومة لأنه يخفف عنها بنقل شيء من ضغط الإحساس إلى الحركة العضلية . .
والضحك هو الانتقال فجأة من الإحساس إلى الحركة العضلية ، والنكتة السريعة تضحكنا لأنها تفاجىء التفكير بحالة مرتقبة وتعجله على انتظار النتيجة في طريقها المعهد المألوف . ومن الأمثلة التي أوردها سبنسر المضحكات منظر جدى يظهر على المسرح فجأة بين حبيبين يتناجيان . . . والإحساس النظارة هنا يمشى في طريق الغزل وينتظر أن يمشى فيه إلى نهايته الملائمة له ويوجه الذهن إلى هذه الناحية . ولكنه لايلبث أن يلمح الجدى على المسرح حتى يحتبس في موضوعه فيتحول على غير انتظار إلى ناحية أخرى . فيندفع الإحساس من الأعصاب إلى العضلات وتحدث الحركة التي نسميها الضحك حين يختلج بها الفم والرئتان . . . وفي كل نكتة شيء من هذا التحول الذي مثل له سبنسر ينجم عن المفاجأة بما ليس في الحسبان ويتلخص في إظهار نتيجة غير النتيجة التي تبدر إلى الذهن لأول نظرة من الشيء المضحوك منه . .

« فالنكتة الصادقة هي الحجة التي تظهر لنا فساد الأقيسة المختلفة واضطراب النتيجة التي تأتى في غير موضعها وتلتوى على مقدماتها . وهذه هي النكت التي تفيد النفس لأنها تروح عنها وتفيد الذهن لأنها ضرب من المرانة على التفكير السريع وشحذ للفهم وتقويم له على المنطق السديد . ونكتة واحدة يفهمها الطالب حق الفهم خير من مائة درس في المنطق يقرؤها ويعيدها وهو لايحسن القياس ولا يفقه الدليل .
« وكتاب الأوصاف المضحكة يعتمدون في نكاتهم على ملكات كثيرة قد تمتزج بعضها بعضا وقد لايجتمع منها ملكتان لكاتب واحد . فمنهم من يعتمد على ملكة السخر وهو يحتاج إلى الذكاء وإدراك الفروق وقد يصحبه شيء من الجد والمرارة ، ومنهم من يعتمد على الدعابة وهي تحتاج إلى مرح في الطبيعة مرجحة في الغالب إلى المزاج لا إلى الدرس والتعليم ، ومنهم من يعتمد على الهزل وهو خلق ينشأ عن جهل بتقدير عظائم الأشياء وقد يستحل الضحك في جلائل الخطوب ، ومنهم من يعتمد على العطف وهو يرضى الإنسان عن نقائص الناس ويضحكه كما يرضى الوالد الشفيق عن جهل

وليده الصغير ، وخير هذه الملكات وأعلاها ملكة [illegible] يمازجها العطف ، وهي عبقرية لاتقل في اقتدارها على تجميل [illegible] النفوس والأذواق عن عبقرية الفلسفة وعبقرية الشعر والتحليل [illegible] (في سنة ١٩٢٧)
وقد عن لي غير مرة بعد كتابة الفصل المتقدم [illegible] البحث عن مصادر أن أتوفر على تصنيف كتاب واف أبسط فيه [illegible] الجمال والإحساس الأحاسيس التي تمتزج بالفنون والآداب [illegible] والإحساس بالمضحك بإجلال والإحساس بالمقدس والإحساس بالمبهج [illegible] استيعاب هذا البحث على أنواعه ، ولكنني وجدت الوقت يضيق [illegible] اللغات ، فجعلت لضخامته وصعوبة مسالكه وجدته في اللغة [illegible] مالمسته في مسألة ألمس هذا الموضوع متفرقا من حين إلى حين [illegible] يكون منها ما يلجأ إليه الفكاهة وتوضيح أقسام السخرية من حيث [illegible] إلى وجودها وبقائها ، الساخر كأنه يفتش عن العيوب الإنسانية [illegible] الذي يعرف عيوب ولده ويكون منها ما يلجأ إليه الساخر آسفا مضطرا [illegible] ولايرجى وهو في الواقع ويبالغ فيها ويفرط في التأنيب فيقول له إنه [illegible] العيوب .
أول من يرجو له الفلاح ويتمنى لو يكذب [illegible] النكتة ورأى سبنسر ووقفت بالبحث حيث وقفت في [illegible] ولم أقف عناية بالموضوع وبرجسون فيها . وأعني أنني وقفت في البحث [illegible] ، وكنت كلما توسعت واطلاعا على آراء خبرائه وذوى الاختصاص [illegible] من أوائلها بدا لي أن فهم في استيعاب آراء الخبراء وتواريخ هذه البحوث [illegible] الحزن بداءة طبيعية لهذه «المضحك» كما فهمته لأول الأمر مقبلا للمبكى [illegible] وعشرين قرنا إنما تحركوا البحوث ، فإن الفلاسفة الذين تكلموا عنه [illegible] مقابلة للكوميدية أو المهزلة ، من هذه النقطة ، فوضعوا التراجيدية أو المأساة [illegible] ضموا الهزل والعبث جميعا وضموا الجد والبكاء جميعا في تعريف المأساة [illegible] أرسطو من بعد واقتدى بهما في تعريف المهزلة ، وكذلك فعل أفلاطون [illegible] مع قواعد الخطابة والبلاغة كل من تصدى لتحليل فنون المسرح والشعر [illegible] في جميع هذه الأغراض .
يبدأ فهم المضحكات على هذا النحو [illegible] عليه المقابلة الاسمية بين الضحك والبكاء ، ثم يتفرع الضحك [illegible] وتلوح منه الأفانين التي لايقابلها البكاء في كل حالة ، بل يدخل [illegible] ويحسب منها في بعض الحالات . .

الفيلسوف الباكى والفيلسوف الضاحك

وقبل أن نأخذ فى تخليص آراء افلاطون وأرسطو لاننسى من السابقين لهما فى تاريخ الفلسفة اليونانية اسمين متناقضين كان كلاهما مادة من مواد الضحك وشاهدا من الشواهد التى يسوقها المعنيون بتعريفاته وتقسيماته .
وهما الفيلسوف ديمقريطس والفيلسوف هيرقليطس المولود فى القرن الذى يليه .

فالأول كان يلقب بالفيلسوف الباكى لأنه كما زعموا كان دائم البكاء لاترقأ له عين ولايبتسم له ثغر ، ولايزال ناعيا على قومه ما صنعوا وما يصنعون من أمورهم العامة والخاصة .

والثانى كان يلقب بالفيلسوف الضاحك لأنه كما زعموا كان دائم الضحك لا يكف عن الابتسام أو القهقهة ولايكرثه خطب من الخطوب جل أو هان ..

وقد قال جوفنال الشاعر اللاتينى الساخر أن العجب لهيرقليطس أعظم من العجب لزميله ، فإن دوام الضحك ـ صحيحا أو متكلفا ـ لايشق على أحد يريده ، وأما العجب كله فمن ذلك الفيلسوف الذى يجد فى عينه معينا لاينضب من الدموع ويحزن جدا أو يتكلف الحزن تمثيلا ولهوا حينما وجد مع الناس .

والقصة كلها « مزدحمة » بشواهد الضحك ومعارض البحث فى حقائقه وأكاذيبه ..

فمن الرجال يا ترى أدعى إلى الضحك عند الناظرين إليه ؟ ..

أنضحك من دائم البكاء أم نضحك من دائم الابتسام والقهقهة ؟

يخيل إلى الأكثرين أن الرجل الذى لاينقطع بكاؤه أدعى إلى الضحك من الرجل الذى لاينقطع ضحكه وابتسامه . وأنها ـ بعد ـ موضوع صالح جدا للدعابة والسخرية .

وأول ما يرد على الذهن من أسباب ذلك أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما غير معقول .

وهنا نذكر أن الإنسان حيوان ناطق وحيوان ضاحك . وأنه استأثر بالمنطق وبالضحك ، لأنهما مقياسان مشتركان للعقل وللمعقول ... وهنا نذكر أيضا أن النكتة وسيلة لإظهار الخلل المنطقى وإن كان الفرق بينهما أن النكتة تفاجئنا بإظهار الخلل وأن الدليل المنطقى يسترسل فى إظهاره بغير مفاجأة ..

ثم يرد على الذهن أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما إفراط وخروج من الجد إلى ما عداه ، وما عدا الجد يلتقى بالضحك [illegible] فى بعض الطريق ..

وغنى عن القول أن الفيلسوفين لم يكونا على الصفة التى [illegible] من كلمة الفيلسوف الباكى والفيلسوف الضاحك ، وأنهما تعرضـ[illegible] الزيادة فى الوصف لأنهما مبالغان أراد الناس أن يكشفا هذه المبالغة منهم [illegible] بها إلى غايتها المستحيلة ، وصنعا لها بذلك الوصف صورة هزلية [illegible] الصور التى يتعمد فيها الرسامون الفكاهيون إبراز الملامح الشاذة بتكبيرها والخروج عن جميع مألوفاتها .

ولقد كان هيرقليطس يترجم عن سخطه أحيانا بحركات [illegible] ليست من البكاء ولا الحزن فى شىء . فكان يلعب مع أطفال [illegible] الشيوخ فيجبيهم بأن الأطفال أعقل منهم فى تدبير اللعب . لأنهم [illegible] يصنعوا فى ألاعيبهم ماصنعه الشيوخ المحنكون فى أحق الأمور بالجد والرصانة .

وكان ديمقريطس يسيح فى الأرض من بلاده إلى مصر و[illegible] وفارس والهند وكل قطر معمور . وكانت الدنيا على أيامه قائمة [illegible] تهون فيها مصائب الآحاد إلى جانب المصائب التى تحيق بالدول و[illegible] ، فكان يضحك من أولئك الذين يستسلمون للأحزان ولايعتبرون [illegible] حولهم من عادات الزمن وصروفه حيث ارتحل وحيث أقام ، وقيل [illegible] نوادر جرأته بالسخرية أنه اجترأ بها على « دارا » جبار الفرس وهو يسيح فى بلاده . فإن هذا الجبار أحزنه أن تموت له جارية يحبها فوعده ديمقريطس بإحيائها بعد دفنها ، وقال له أن الأمر لا يتطلب أكثر من كتابة ثلاثة أسماء على القبر فتعود الجارية إلى الحياة ، وسأله « دارا » فى لهفة : «وما تكون هذه الأسماء» فأجابه الفيلسوف وهو يصطنع الجد : « أسماء ثلاثة لم [illegible] أحدا من الأعزاء » .

وكان هذا هو العزاء ...

ولاريب أن البديهة الإنسانية كانت من قبيل الحديد الذى يفل الحديد . فهى التى لقى منها الفيلسوفان جزاءهما من جنس العمل [illegible] كلاهما من قومه فأرسله قومه فى التاريخ على ذلك « الكاريكاتور » [illegible] ضاحك دائم الضحك وباك دائم البكاء .

وهذا أيضا باب من أبواب المضحكات التى انطوت عليها قصة الفيلسوف : باب الصورة الهزلية أو الكاريكاتور .

ثم يجىء الشاعر الساخر جوفنال فيغمض باختياره عن هذه المبالغة لأنها توافق « القافية » كما نقول فى النكتة العربية ، وماكان الشاعر الساخر أن يجد بين يديه هاتين الصورتين ثم يردهما إلى سواء الخلقة ليضيع منه المجال الصالح للتهكم على الموصوفين والواصفين .

فلسفة الضحك

على أن هذين الفيلسوفين المضحكين قد زودا فلسفة الضحك من سيرتهما ورسمها بزاد لم تتزوده تلك الفلسفة من عقلين كبيرين كعقلى الفيلسوف أفلاطون وتلميذه الفيلسوف أرسطو وهما أعظم فلاسفة اليونان ، ولم يعرض لفلسفة الضحك بعدهما عقل أكبر من عقليهما إلى اليوم . .

وكان خليقا بأفلاطون وأرسطو أن ينفذا إلى جوهر الموضوع فى فلسفة الضحك وأسبابه لو أنهما قصدا إلى الموضوع فى صميمه ، وأرادا أن يستوعبا الفروض والاحتمالات فى أسباب الضحك وأنواع المضحكات ، ولكنهما لم يقصدا هذا المقصد ولم يتكلما عنه إلا عرضا فى سياق البحث عن المدينة الفاضلة والبحث عن الشعر وأقسام الروايات الشعرية .

فأفلاطون ذكر المضحكين والمضحكات وهو يبحث عن مكانهم فى مدينته الفاضلة أو جمهوريته المثالية التى أراد أن يقصرها على الأفاضل والمأمونين وأن يجنبها عوارض النقص والرذيلة ، فبدا له أن الشعر موكل بالجانب الضعيف من الإنسان بغير تفرقة بين شعر المأساة وشعر الملهاة .

فالإنسان الكريم يأبى أن يستسلم للبكاء إذا أصيب فى عزيز عليه ولكنه لايبالى أن يبكى وأن يحزن إذا رأى هذا المنظر معروضا عليه فى رواية فاجعة ، لأن البكاء يخدعه فى هذه الحالة ويوقع فى روعه أنه يبكى لغير مصابه ويغلب على نفسه فى سبيل غيره .

والإنسان الكريم يأبى أن يفوه بالأضاحيك أو الخبائث المضحكة ولكنه يستسلم للضحك إذا سمعها محكية فى رواية هزلية يمثلها المسرحيون أمامه . .

وليس بالحسن على كل حال أن يكون فى الجمهورية الفاضلة إنسان يغلب على وقاره ضحكا أو بكاء بله الأناسى الذين يصورون الأرباب فى عليين

مغلوبين على هذه الصورة ، ويقول أفلاطون إن الإنسان الكريم لايعرف الجد إلا بالهزل وأنه من الحسن أن يشهد مناظر الهزل من العبيد والأجراء المسخرين ولاينغمس فيها بنفسه . وقد أثنى على المصريين لأنهم يعلمون الأبناء الموسيقى والرقص قياما بالشعائر الهيكلية ولكنهم لايسمحون للشعراء بخلط الألحان بالأغانى المبتذلة والقصائد الموزونة على رقص الخلاعة والمجون ، وقد كانت خلاصة رأيه فى كتاب الجمهورية وكتاب القوانين أن الشعراء يحسنون صناعة الشعر ويستحقون من أجل ذلك أكاليل الغار ولكنهم يلبسونها ويخرجون من المدينة الفاضلة إلى حيث يشاءون . .

ولم يذكر أفلاطون سبب الضحك إلا فى كلمات قليلة خلال هذه المباحث الأخلاقية ، وهو يرى فى تلك الكلمات أن الضحك مرتبط بالجهل الذى لايبلغ مبلغ الإيذاء ، وأن الشعراء يضحكوننا حين يحاكمون أولئك الجهلاء ، ولكنهم إذا طرقوا موضوع الملحمة أو المأساة عظموا الطغيان وجعلوا رواياتهم حكاية لأعمالهم ، فلا أمان لهم فى محاكاة الجهل ولا فى محاكاة الطغيان .

وأرسطو أدق من أستاذه فى تعبيراته عن أقسام الشعر لأنه وضع فيها مبحثا خاصا يتبع فيه المسرحيات المضحكة من أصولها منذ كانت ضربا من الهجاء والأغانى الشهوانية إلى أن أصبحت موضوعا للإضحاك والتسلية ، ولهذا جاءت فى الترجمات العربية باسم الأهاجى والتهريجات ولم يبتدعوا لها اسما يقابل اسم « الكوميدية » كما صنعنا فى العصر الحديث إذ سماها بعضهم بالمهزلة وبعضهم بالملهاة وعربها بعضهم بلفظها اليونانى فسماها الكوميدية .

وعند أرسطو أن المضحك ضرب من الدميم أو المشوه لايبلغ درجة الإيلام أو الإيذاء . وفى نبذة منسوبة إليه من رسالة مقطوعته طبعها كيبل Kaibel ، لأن النفس المطبوعة على الرحمة أو على حسن الذوق تجد فى المأساة والملهاة منصرفا لما تنطوى عليه من العطف والشوق إلى الكمال واجتناب التشويه .

وكلا الفيلسوفين قد تطرق إليه الخطأ من فهم المأساة والملهاة على أنها نوع من التقليد والمحاكاة ، لأن الشعر المسرحى يعرض الفواجع بتمثيل أناس يحاكون المصابين بها فى حركاتهم وأقوالهم ، وكذلك يفعل بالمضحكات والملهيات .

وأفلاطون من أجل هذا ينزل بالمقلدين إلى الدرجة الثالثة ، فيقول إن

الصورة المفضلى هى صنعة الله ثم يحكيها الصانع الخبير بالصناعة ، ثم يأتى الشاعر فيحكى عمل هذا الصانع حكاية بعد حكاية .

ولم يلتفت أرسطو إلى منزلة الشعراء المقلدين إلا فى سياق كلامه عن الأخلاق والاستطراد منه إلى أخلاق الهجائين أو الذمامين ، فلم يكن من همه أن ينشىء مدينة فاضلة يبيح المقام فيها لأناس ويحرمه على آخرين .

وليس فى هذا الخطأ عيب على عقل الفيلسوفين الكبيرين ، لأنهما بادئان فى طريق لم يسبقهما إليها سابق من الخبراء أو غير الخبراء ، ولكن العجيب منهما أن يحسبا الفن تقليدا أو محاكاة ولا يحسباه خلقا وابتداعا من الشاعر على التخصيص ، ومع أن كلمة الشاعر تفيد معنى الصانع أو الخالق باللغة اليونانية .

ونقول إن هذا عجيب من الفيلسوفين حقا لأنهما كانا يستطيعان أن يعلما أن وصف كرسى فى الشعر أصعب من عمل كرسى بصناعة النجارة ، وأن النجار الذى يعمل ألف كرسى لايستطيع أن ينظم بيتاً واحداً من القصيدة التى تنظم فى وصف أحد كراسيه ، وهكذا يستطيع الرسام أن يصور كوبا من الفخار ولايستطيع الفخارى الذى يصنع الآنية الفخارية جميعا أن يخرج صورة لكوب صغير منها .

وقد زاغ هذا الفهم الخاطىء بالفيلسوفين عن أسباب الضحك فى تفصيلاتها ، لأنهما التفتا إلى فكرة التقليد فجعلها أحدهما إسفافا دون صناعة الصانع ، وجعلها الآخر طلبا للمعرفة يكاد أن يتساوى فيه المقلد ، ومن يشهد التقليد ويسر بالنظر إليه ، ولم ينظر كلاهما بعين الشاعر لينفذ إلى مواطن الضحك فيما يتحراه من الصور المضحكة ومن تنويع عرضها وتمثيلها . .

لكنهما على هذا الخطأ الذى لاينجو منه كل مبتدىء قد نجحا فى التعريف بسبب الضحك نجاحا غير قليل ، لأنه كان أساسا لما بناه التابعون كما كان أساسا لنقد الناقدين .

فالقول بأننا نضحك من العمل لأنه يتم على جهل لم يبلغ درجة الإيذاء والإيلام . أو أننا نضحك من العمل لأنه يعرض لنا تشويها لم يبلغ هذه الدرجة - كلاهما قول يؤخذ به للمناقشة والتعقيب ولايرفض كله جملة واحدة فى تعريفات المحدثين .

وكل ما نعترض به على التعريفين أن الإنسان قد يتبلد شعوره عن الألم

والضحك فى وقت واحد ، فليس كل إنسان يرى التشويه ولايؤلمه يضحك منه ، لأنه قد يكون بليدا يخفى عليه التشويه والألم فى آن .

وإنما الخلو من الألم شرط لكل استمتاع بشىء من الأشياء حتى ما كان من قبيل المتعة المادية ، إذ كان الألم على الأقل صارفا للشعور عن سبيل المتعة . إن لم يكن مناقضا للشىء المضحك أو الشىء الجميل أو الشىء الجليل .

ونضرب مثل لذلك بإنسان مشوه ينظر إليه صاحب الإحساس المرهف فيدرك ما يعانيه ، وينظر إليه الطفل الغر أو الرجل الجلف فيهزأ به أو يولع به للضحك منه وإضحاك الناس عليه .

فلا يجوز أن تفهم من ذلك أن الرجل الحساس غير صالح للضحك وغير خبير بالمضحكات . لأنه قد يحس منهما ما يجهله الأطفال الأغرار والرجال الأجلاف . بل يجوز أن نقول أن الطفل الغر والرجل الجلف لايعرفان ما يضحك ولا يعرفان ما يؤلم فى وقت واحد .

* * *

وندر من فلاسفة القرون الوسطى من نظر إلى الضحك نظرة جدية وراءه فى حكمه جديرا بالبحث عنه وعن أسبابه ، لانصرافهم إلى البحث فى الأصول الدينية وأسرار ما وراء الطبيعة ، ولعل فلاسفة اليونان الأقدمين كانوا على هذا الرأى ولم يبحثوا بعض البحث فى الضحك وأسبابه إلا فى طريق بحثهم عن التراجيدية والكوميدية مع رجوع هذه فى أساسها إلى سير الأرباب وشعائر الدين محافل الأعياد الوثنية .

إلا أننا قد نعثر بين الآونة والأخرى على فيلسوف من فلاسفة القرون الوسطى بحث فى معنى الضحك لاتصاله من بعض أطرافه بمباحثه الأخلاقية أو اللاهوتية . وأحق هؤلاء بالالتفات إلى رأيه فى هذا البحث يوسف البو Joseph Albo (١٣٨٠ - ١٤٤٥) . وتوماس هوبز Thomas Hobbes (١٥٨٨ - ١٦٧٩) .

فيوسف البو فيلسوف إسرائيلى ممن درسوا فلسفة الأندلس الإسلامية واقتبس منها فى كتابه عن المبادىء والأصول ، وتكلم عن الضحك لأنه مذكور فى كتب التوراة ومنسوب إلى الأنبياء ومنهم إبراهيم الخليل .

قال : « الضحك ـ وبالعبرية سحوق ـ كلمة مرادفة لكلمات فى معناها ، وتدل على الفرح كما جاء عن إبراهيم أنه خر على وجهه وضحك ، ومعنى ذلك أنه كان فرحا بما سمع .

« وقد يدل الضحك على السخرية والاستهزاء كما يقول القائل : إننى ضحكة للجار ، وربما امتزج معنى الضحك والسخرية كما جاء أن الذى يستوى على السماء ـ الله ـ يهزأ بهم . إذ كان الضحك أحيانا دليلا على الشعور باحتقار من يستحق الاحتقار ، وهكذا يشعر من يلحظ نقصا فى كلام أحد أو عمله ويشعر بتفوقه عليه لأنه لايقع فى مثل ذلك النقص فإنما يتولاه الضحك لأنه يرى الآخر يقول أو يعمل ما لا يجمل بالإنسان ووقاره .

« وعلى هذا النحو ينسب الضحك إلى الله فى التعبير المتقدم ، وسببه أنه يسمع القائلين يقولون : هلموا نمزق شملهم ، وهى كلمات لايجمل بالبشر أن ينسبوا بها . على حد قول الربانيين أن سبب المشابهة بين نشيد أبسالوم وأخبار يأجوج ومأجوج أنه لو سأل سائل : هل من الممكن أن يتمرد العبد على مولاه ؟ لكان الجواب : وهل من الممكن أن يتمرد الولد على أبيه ؟ . . وقد حدث هذا فمن الممكن إذن أن يحدث ذاك .

« وواضح من ثم أن ذلك المقال مما لايحسن بإنسان أن يقوله وإلا كان أهلا للازدراء والسخرية . وبهذا المعنى ينسب الضحك إلى الإله وإلى الإنسان . .

« ويضحك الإنسان أحيانا إذ يخدع غيره فى أمر كان ينبغى أن يحذره المخدوع وينتبه إليه . ومن ثم يرجع سبب الضحك فى جميع الحالات إلى الشعور بالتفوق فى نفس الضاحك حين يرى غيره يقع فى حماقة وأمر ينبىء عن جهالة . ويقول العلماء أن الضحك خاصة إنسانية كما يقولون أن أسبابه مجهولة ، ويعنون بذلك أننا لانعلم لماذا يكون الضحك مصحوبا بحركات جسدية معينة ولماذا يحدث الضحك عند لمس الأبط أو بعض المواضع الحساسة من الجسد . على أن حدوث الضحك من السخرية معروف جد المعرفة كما بينا فى شرح الآية . . .

وظل هذا الرأى مأخوذاً فى تفسير الضحك إلى أوائل العصور الحديثة . وهو على التقريب رأى الفيلسوف الإنجليزى توماس هوبز الذى يرجع بكل خليقة أو عاطفة ترضى الإنسان إلى شعوره بالقوة والامتياز والرجحان . ويرى أن الأخلاق الإنسانية المحمودة تدل جميعها على القوة فى صورة من صورها . .

فالكرم والشجاعة والصبر والعزة والفضائل جميعها لاتنال حمد الإنسان ما لم تكن مقرونة بالقدرة والدلالة عليها ، وتتساوى الأخلاق النبيلة والعواطف الرفيعة فى هذه الخصلة ، بل تتساوى فيها الأعمال الإرادية وغير الإرادية كالضحك فى صورته العقلية وصورته الجسدية . فإنما يضحك الضاحك لأنه يحس من نفسه انتصاراً مفاجئاً أو مزية مفاجئة ، ولابد من شعور النصر أو الامتياز فيما يضحك الإنسان ويرضيه . .

وهذا هو الرأى الذى توافقت عليه أقوال المتكلمين عن الضحك من عصر الفلسفة اليونانية إلى العصر الحديث ، ولا حاجة إلى انتظار التعقيب الأخير على جملة الآراء لإظهار الخطأ فى هذا التعليل الذى يصح فى واحد من المضحكات ولايصح فى جميع جوانبها . فإن الإنسان قد يضحك أحيانا حين يشعر أنه قد انخدع كما يضحك من غفلة غيره حين تجوز عليه الخديعة البينة ، وليس هذا دليل على الشعور برجحانه بل هو دليل على شعور برجحان غيره عليه .

والمثل القريب على ذلك ما تقدم عن الضحك « الإجماعى » فى مؤتمر الساسة الذين جلسوا لتضييق الخناق على نابليون ثم جاءهم الخبر فجأة بانطلاقه من جزيرة البا وعودته إلى فرنسا . فهذا موقف مغلوبين لا موقف غالبين ، ولايستقيم تفسيره بشعور الرجحان أو الانتصار من جانب الضاحكين . .

وكل ما يثبت فى جميع الحالات أن هناك مفاجأة تخالف الحالة المطردة أو الاتجاه الذى يجرى فيه الشعور . وبهذا يسهل تفسير الضحك ممن جلسوا ينظمون القارة الأوروبية بعد اعتقال نابليون كأنما هذا الاعتقال أمر مفروغ منه ثم تقع المفاجأة بما يخالف الحسبان .

افراط المحدثين

وإذا كانت الشكوى من الثقافة القديمة قلة البحث فى الضحك وأسبابه فقد يكون الإفراط فى هذا البحث شكوى القارىء من الثقافة الحديثة ، لأنها توشك أن تتطلب منه تخصصا ثقافيا مقصورا عليها ، وقد أثبت برجسون نحو أربعين مرجعا من الكتب والأصول ألم بها فى رسالته عن الضحك ، ويمكن

[illegible] ثلاثة أضعافها من المراجع المتفرقة عن فلسفة المضحكات عامة أو [illegible] موضوعات الفكاهة والنكتة فى مزاج الأمة أو تلك أو فى آدابها [illegible]

[illegible] هذا الإفراط فى الكتابة عن الضحك إلى باعثين جديدين فى العصر الحديثة : أحدهما نشأة علم الذوق أو علم الجمال الذى ينظر فى الفروق بين الجميل والجليل والمضحك كما تعرضها الفنون الجميلة ولاسيما التمثيل . وكأنما كان اهتمام المحدثين بالتمثيل ورواياته وأدواره تجديدا لاهتمام أفلاطون وأرسطو بالتراجيدية والكوميدية وملكات الشعراء الذين يكتبون فى العبادات والمضحكات والملاحم الكبرى عن الأرباب والعبادات وما استطردت إليه من موضوعات لا علاقة لها بالدين وقد تناقضه وتخالف الأدب الواجب للمعبودات وشعائر العبادة . فإن عودة الأب المسرحى فى العصور الحديثة دانت فاتحة البحوث الفنية والفلسفية فى الموضوع من جميع جوانبه وأطرافه ، فكان البحث فيه عن المضحك والمبكى والحسن والقبيح مقرونا بالبحث عن المقدس والقداسة فى شعور الإنسان وفى الكائنات التى يقدسها ويرتفع إليها بالإجلال والابتهال . واستدعى تمثيل هذه الكائنات شعرا ونحتا وتصويرا أن توضع لها الحدود والتعريفات وتقام الفواصل بينها وبين ما يلتبس بها من المتشابهات أو المتناقضات .

هذا أحد الباعثين الجديدين إلى إفراط المحدثين فى الكلام على الضحك وتعليل أسبابه وتطبيقه على الفنون المتجددة فى الزمن الحديث .

أما الباعث الآخر فهو شيوع البحث في التطور ومذهب النشوء . . . فإن هذا المذهب يفسر تعبيرات الإنسان عن خوالجه وعواطفه بما يوافق طبيعته الحيوانية . ويتقصى وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بينه وبين سائر الأحياء فى هذه التعبيرات ، ويراقب ملامحه ليربط بينها وبين وظائف الجسدية واستعداد هذه الوظائف لتلبية العوامل الداخلية والعوامل الخارجية . .

ولايسع الإنسان إلا أن يبتسم لتناقض النتائج التى وصل إليها أقطاب هذا المذهب بعد بحثهم فى ظاهرة الضحك والفكاهة . فإن العالمين العظيمين اللذين توافيا - بغير التقاء بينهما - إلى تحقيق ظواهره وشواهده قد ذهبا إلى الطرفين المتقابلين فى تعليل الضحك والفكاهة .

فمن رأى الفرد رسل ولاس Alfred Russel Wallace أن الضحك وسائر الخصائص الإنسانية التى ينفرد بها النوع الإنسانى لاتقبل التفسير بالانتخاب الطبيعى وتطور أنواع الحيوان . وهو يتساءل كيف يفسر لنا الانتخاب الطبيعى ملكات الرياضة والموسيقى والإحساس بما فوق الطبيعة ؟ ويعود فيقول إن ملكة الفكاهة من هذا الطراز بين الخصائص الإنسانية ، لأنها تحتاج جميعا إلى تفسير غير تفسير الصراع على الحياة وتنازع البقاء ، ولو كانت من هذه الأسلحة فى النوع الإنسانى لما كان مفهوما كيف يتجرد منها معظم الناس ولاتتوفر لغير العدد القليل منهم فى أرقى الحضارات . ولا كان مفهوما كيف يتجرد منها الهمج والأوائل الفطريون كما يتجرد منها الأكثرون بين المتحضرين ، فهى كما قال فى تطبيقه المذهب الداروينى على الإنسان أخلق بأن تفسر بالمنحة الإلهية التى يختص بها الخالق بعض الطبائع الموهوبة . ولن تقبل التفسير بغير ذلك ولو باعتساف شديد .

ومن رأى دارون أن الضحك قد يوجد بمعزل عن التفكير كما يلاحظ على البلهاء وصغار الأطفال الذين يضحكون ليعبروا عن حالة الرضا والارتياح ولايصحبون ذلك بفكرة أو خاطرة ذهنية . والأصحاء من الراشدين تعتريهم حالات الضحك لأسباب غير أسبابه فى الطفولة . ويصدق هذا على الضحك ولكنه لايصدق على الابتسام . وكأنما يعبرون بالضحك عن حالة مقابلة البكاء الذى يقترن بالشدة والكآبة العقلية كما يقترن بالخوف والغضب ، ولعل شيئا من الغرابة المفاجئة مع شىء من الشعور بالتفوق هو أشيع الأسباب لضحك الكبار الراشدين . ومن الواجب ألا تكون الظروف على جانب عظيم من الخطر والجسامة . فإن الرجل الفقير - مثلا - لاينتظر منه أن يضحك إذا سمع فجأة أنه كسب مقداراً كبيراً من المال ، ولكن العقل إذا هاجه الشعور بالمسرة وطرأت عليه خاطرة صغيرة غير متوقعة فالنشاط العصبى يفرج عن نفسه بتحريك العضلات تلك الحركة التشنجية الخفيفة التى نسميها الضحك .

قال فى كتابه عن تعبيرات العواطف فى الإنسان إن الجنود الألمان أثناء حصار باريس كانوا يندفعون إلى الضحك لكل تفاهة من تفاهات النكتة بعد طول التعرض للخطر الشديد ، ويقول مستر هنتون من سان فرنسسكو أنه كان

يتناوبه الصياح والضحك وهو على التلال عند الباب الذهبى معرضاً لأفدح الأخطار . وهكذا يشاهد على الأطفال الصغار وهم يهمون بالبكاء أن بكاءهم يتحول إلى ضحك حين يطرأ أمامهم طارىء غير متوقع ، مما يفهم منه أن الضحك يفيدهم فى تصريف فيض الجهد العصبى الذى يحسونه على تلك الحال . .

وينظر داروين إلى أسلوب المجاز حيث يقول القائل إن الخيال دغدغته فكرة مضحكة فيلاحظ أن دغدغة الخيال مماثلة لدغدغة الجسد ويتخذ المثل من ضحك الأطفال و « تشنج » أجسامها الصغيرة بفعل الدغدغة ثم نلاحظ أن القردة العليا تبدر منها أصوات مرددة فى مثل هذه الحالة ، ويعود فيفرق بين الضحك من فكرة مازحة والضحك من أثر الدغدغة إلا فى أمر واحد هو أن يكون الفكر فى حالة راضية ، فكما أن الطفل يصيح ولا يضحك إذا دغدغه رجل غريب واشتدت عليه حركة الدغدغة كذلك ينبغى أن يكون الفكر بعيدا من الجفوة والشعور بالاكتراث والاهتمام ، وتحدث فى الدغدغة الجسدية فى المواضع التى لاتتعرض كثيرا للمس ولايكون موضع الدغدغة معروفا قبلها ، وكذلك تحدث الدغدغة الفكرية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك ، ويبدو أن عنصر الطروء أو المنافرة الذى يجرى فى سياق التفكير هو العنصر القوى فى تكوين المضحكات . .

ثم يراقب داروين عوارض الضحك على الوجه والجسم ويحصيها إحصاء دقيقا فى تتابعها على حسب الرخاوة أو العنف فى الشعور ، ويقرر أن الشعور العنيف كله متخذاً تعبيرا واحدا فى حالتى الحزن والسرور وأن مشاهدة ذلك ميسورة لمن يراقب العصابيين (الهستيريين) والأطفال لسرعة تأثرهم بأنواع الإحساس ، فإنهم يتراوحون بين الضحك والبكاء فى الوقت الواحد وينتقلون من الشعور إلى نقيضه لأنهما عندهم متقاربان . وشأن القبائل الفطرية عند داروين كشأن الأطفال فى هذه الخصلة ، لأنه رأى فى جزر ملقة نساء يبكين إذا أغربن فى الضحك ، وروى أقوال السائحين عن سكان استراليا الأصلاء إنهم يقفزون ويصفقون وتغرورق أعينهم بالدموع وهم مرحون ضاحكون ، ثم قال إن الاستراليين والأوروبيين يتشابهون فى ضحكهم جميعا من رؤية المحاكاة . ومن القبائل الفطرية فى جزيرة سيلان أناس لايضحكون لمنظر قط من المناظر

المضحكة - فيما رواه هارتشورن rne
مستغربين : وما الذى يدعو إلى
الابتسام والضحك فى جميع الأمم يجري
الحد الحاسم فى الحركات أو المعانى بين

وظاهر من دراسة داروين كلها للتعم
بمراقبته إلى العوارض الجسدية التى تعم
الحيوان فى بعض الأحوال ، والعوارض
الأخرى التى لايسهل ضبطها وتعميمها
المشتركة بين الناس من جانب وبين الن
وهو على خلاف زميله فى مذهب
بالتعميم والأشباه الشائعة دون تلك
مزية محدودة لايفسرها تنازع البقاء
الموسيقية وما إليها . فبينما يهبط داروين
التفكير كضحك الأطفال والعصابيين
ملكة الفكاهة العالية التى يمتاز بها
عدد العباقرة الذين يكشفون خفايا الحـ
ويعلمون الناس كيف يفهمونها ويد
للكثيرين أن يجاروهم على فهمها وإدرا

والنزعة الوجدانية هى سر الا
العالمين الكبيرين . فداروين يبحث
مواطن الشبه بين أرقى الأحياء وأقل
بوحدة العوارض الجسدية التى تصا
المشاهدات الحسية . ويعنيه أن يراقب
بعض المواضع فى أجسامها باللمس

وكل هذا لايفسر الملكة التى يعن
ينفرد بها الآدميون بل ينفرد بها ا
تتجه إلى الإيمان بالروح الإلهى وم
كلما تهيأت لها بهداية السماء .

إنهم يقولون إذا سألوا
هذا أو ذاك ؟ . . إلا أن
واحد فلا يستطاع وضع
ـك ودواعى الابتسام . .
ـية والحيوانية أنه يتجه
الإنسان وقد تعم بعض
أدق لديه من العوارض
ذلك تعليلها بالانفعالات
لعليا من الجانب الآخر .
ـرر - الفرد ولاس - موكل
ـية التى يرى صاحبه أنها
الإدراك الرياضى والبداهة
ـص الضحك التى يقل فيها
القطرية - يرتفع ولاس إلى
ـابع قلما يزيد عددهم على
ـة ودقائق النسب الموسيقية .
ـولهم وبصائرهم فلا يتيسر

النظرة إلى المضحكات بين
لأنواع الحيوانية فيهبط إلى
ـقد الصلة بين هؤلاء وهؤلاء
ـ من تأثير الدغدغة أو تأثير
الدغدغة فى القردة التى تتأثر
غير المألوف . .
ـس ويعلو بها إلى الطبقة التى
ـيين . لأن نزعته الوجدانية
ـضها على الأرواح الإنسانية

ولم يزعم داروين أنه فسر الضحك كله واستوعب الكلام فى أسرار الضحكات على اختلافها . وإنما أراد منها ما تثبته التعبيرات المحسوسة وتطرد فيه الملاحظة إطرادا يقبل التعميم .

ويقال هذا أيضا عن الفلاسفة الذين درسوا الضحك من ناحية علم الذوق والجمال . فإنهم تناولوه من وجهة المقابلة بينه وبين الأحاسيس الجميلة أو الجليلة أو المقدسة ولم يستوعبوا أصوله وتفريعاته فى دراسة مستقلة تحيط به فى معانيه الفنية ومعانيه الحيوية .

فخلاصة رأى كانت Kant أن الضحك ينشأ من التوقع الذى ينتهى فجأة إلى غير طائل ، وخلاصة رأى شوبنهور أن الضحك فى جميع الأحوال نتيجة للمفاجأة بإدراك عدم التناسب بين الشىء المضحك والشىء الذى يخطر على البال أنه يشبهه ، وخلاصة آراء الباحثين فى الجميل والجليل عامة أن المضحك هو النزول بالجليل - أو الوقور - فجأة إلى الابتذال والإسفاف . وأنه فى جملته نوع من الحطة Degradation يسرع الذهن فى الالتفاف إليه . .

وليس من اليسير أن نستقصى هنا كل ما قيل فى تعريفات الضحك وأسبابه ، فإن الجمع الذى يدل على طائفة قليلة من نماذج التفكير أجدى من إحصاء التفصيلات التى تتبعثر بغير رابطة بينها تدور على محور معلوم . .

ونرى أننا قد نستغنى عن تتبع الآراء المبعثرة فى تعليل الضحك إذا اجتزأنا منها بتلخيص ثلاثة آراء نموذجية هى رأى سبنسر العالم الإنجليزى وبرجسون الفيلسوف الفرنسى وفرويد الطبيب النمسوى صاحب مذهب النفسانيات الحديث .

فرأى سبنسر رأى عالم نشوئى يفصل رأى داروين وينقحه ويزيد عليه من الوجهة العلمية الطبيعية .

وبرجسون فيلسوف ينظر إلى الوجهة الاجتماعية ولايهمل الوجهة الفنية وإن كان يوجزها ولايستقصيها .

وفرويد ينظر إلى الدخائل النفسية مع ارتباطها بالمجتمع وعلامات الصحة والمرض فى الآحاد .

وقل أن يوجد رأى فى الضحك لايلتقى بهذه الآراء فى جزء من الأجزاء .

ثلاثة آراء فى الضحك

كتب سبنسر رأيه بعنوان فزيولوجية الضحك :
The Physiology of Laughter

وهو عنوان يدل على مدار البحث كله . ويؤخذ منه أن الباحث أراد أن يفسر عوارض الضحك الجسدية وارتباطه بالأفكار والأحاسيس التى تستدعيه . . .

وفكرته تشابه فكرة داروين فى أساسها ، ولكنه يخالف القائلين بأن الضحك محاولة عضلية للتخلص من شعور مكرب أو غير محتمل . ويخالف القائلين بأن الضحك يتولد من الشعور المفاجىء بالغبطة والرضا عن النفس بما يوحى إليه من السلامة أو الرجحان .

ويقرر سبنسر أن هذا كله قد يحدث ولايحدث معه الضحك ، وأنه لابد لتمام العوارض جميعا من التحول المفاجىء من سياق إلى سياق فى وجهة الشعور .

يشترك الموسيقى بتوقيع قطعة من ألحان موسيقى بيتهوفن مثلا فيعطس أحد الحاضرين عطسة قوية يسمعها الحاضرون خلال التوقيع . فيضحكون ليس فى الاستماع إلى الموسيقى شعور مكرب تتخلص منه النفس بالضحك ، ولكنه الذى حدث أن العطسة غيرت مجرى الشعور أو حبسته عن المضى فى طريقه المألوف . فتنقله هذه المفاجأة من أعصاب الحس إلى العضلات . ويحدث الضحك من جراء هذا الانتقال .

ويقف العاشقان على المسرح يتناجيان ويتغاضبان أو يتراضيان . وإذا بجدى يضل طريقه ويذهب إلى العاشقين فيقطع عليهما وعلى النظارة هذه المناجاة فيحدث من هذه المفاجأة ما أحدثته العطسة القوية أثناء سماع الموسيقى . ويضحك النظارة الذين كانوا يرقبون منظر المناجاة ولم يكن فيه ما يكربهم أو يحبون التخلص منه بالضحك . وإنما يغلبهم الضحك لانتقال الشعور من وجهته المطردة . ولابد له إذن أن ينتقل من أعصاب الحس إلى العضلات .

يقول سبنسر : ولايحدث هذا لجميع السامعين إذا كان فيهم من يستغرقه

الشعور بالموقف ولايدع فيه بقية للانتقال منه والالتفات إلى غيره . فإن هؤلاء قد يغفلون عنه أو يغضبون لتنبيههم من الشعور الذى هم مستغرقون فيه .

ويقول سبنسر : أن المؤثرات لها فى الإنسان ثلاثة منافذ : منفذ الحس ، ومنفذ الفكر . ومنفذ الحركة العضلية . وإنها كلها قابلة للتحول من منفذ إلى منفذ سواء بدأت بالتفكير أو بدأت بالحس أو بدأت بحركة من العضلات . .

فالرجل الذى يهرب من الخطر الداهم يجرى وتشتغل عضلاته بهذه الحركة . ولكن هذه الحركة العضلية لا تستغرقه ولاتمنعه أن يفكر فى الخطر والحيلة التى يحتالها أو العمل الذى يعمله للنجاة منه .

فإذا كان الخوف أهون من الخوف على الحياة فربما انصرف بالحركة وأصبحت الحركة ضربا من الرياضة التى يتشاغل بها الإنسان عن حالته النفسية . .

والطفل يصفق إذا فرح لأن شعوره ينتقل من الأعصاب إلى العضلات . وربما فرك الرجل الكبير كفيه فى مثل هذه الحالة . لأنه تعود هذا الشعور أو تعود أن يتحول عنده إلى الفكر كما يتحول إلى العضلات .

ومما يدل فى رأى سبنسر على أن الضحك من حركات رد الفعل أو من الحركات الانعكاسية أنها حركات لغير قصد أو حركات غير مقصودة بإرادة صاحبها . كأنها غمضة العين للوقاية أو رعشة البرد التى لايريدها المقرور . . .

ويتبسط سبنسر فى وصف تأثير هذه الانفعالات غير الإرادية فيرى أن تأثير الشعور قد يعطل تفكير الخطيب على الرغم منه وهو واقف أمام الجماهير يحس وجودها ويخشى أن يتلعثم أمامها أو لاينال موافقتها وإعجابها . ولو أنه وقف ليلقى خطابه أمام الكراسى الخالية لانطلق تفكيره بغير عائق من الحس والشعور . وهاهنا ثلاثة عوامل مشتركة فى التأثير على الخطيب : عامل الحس إذ يرى الجماهير ، وعامل الشعور إذ يخشى التقصير والخيبة ، وعامل الفكر الذى يشغل الحس والشعور جانبا منه فلا ينطلق مع اشتراكها كما ينطلق على انفراد .

فالسريان بين منافذ الحس والتفكير والحركة طبيعى فى المؤثرات النفسية ، وكلها تجرى فى مجراها الطبيعى من الفكرة إلى الحس والحركة ، أو من الحس إلى الحركة والفكر ، أومن الحركة إلى الأحاسيس والأفكار .

غيرأن الحس أو الفكر لاينتقل إلى نعصر
التى من قبيله ، فإذا كان الألم شديد جد بحـ
إلى العضلات عند المفاجأة . لأنه يجد صرفـ
يصده عن مجراه .

ويستطيع من شاء أن يحقق ذلك بنظر بـ
من تجاربه ومشاهداته :

إذا جلس الناس فى مأتم وحدثت عنو منبه
يضحك الغرباء عن المأتم وقد يضحك نصـ
الميت ، ولكن الكبار المفجوعين لايضحكو
ولا تشغله المفاجأة المضحكة حتى تنتقل
وربما أثارهم وأغضبهم أن يروا أمامهم حـ
والفجيعة .

وملاحظة سبنسر - هذه - مهمة جد
ومنها تعريف أفلاطون وأرسطو وغيرهما
بالسخف أو التشويه الذى لم يبلغ مبلغ الإيذ

فالألم مانع للضحك لأنه يشغل الشعو
الشعور بشىء آخر لم يشعر الإنسان باخـ
الأمر هنا خاصا بالمضحكات دون الخاسر

أن المفاجأة التى تعوق الإحساس عن
وحدها للضحك ولا حاجة معها إلى استثـ
شعور وليس بالاستثناء للمضحكات دون سو

أما إذا كان الإحساس من القوة بحيث
طريقه ولايتحول إلى العضلات ، ولا يحد
تجميع المفاجآت .

وإذا قال قائل عن جدول الماء أنه يجرى
شيئا عن طبيعة الماء دون غيره . فهكذا
وجود العائق فى طريقه سواء فى ذلك حر
وحركة القذيفة من أقوى المدافع والراميات

غياب الحس والفكرة
لشعور كله فهو لاينتقل
جاه الشعور بغير عائق

تخيله على وفاق المألوف

هم مفاجأة مضحكة فقد
صرون وإن كانوا من أهل
مورهم يفيض فى مجراه
إلى حركة العضلات ،
ك وهم مغلوبون بالأسى

يح التعريفات الأخرى ،
يقولون أنه نتيجة الشعور
ذاء .

المضحكات ومتى اشتغل
باللذة ولا بالسرور ، وليس
والمسرات .

تحوله إلى العضلات كافية
الم ، لأن الألم استثناء لكل

ه المفاجأة فإنه يجترفها فى
لضحك من ثم على الرغم من

م يعقه عائق ، فهو لايقول لنا
لكل متحرك أنه لايتحرك مع
ال وحركة البخار وحركة السهم

وكذلك يكون من قبيل تحصيل الحاصل أن يقال أن الضحك يحدث ما لم يمنعه الألم . فإن الألم يحجب الشعور بالمضحكات وغير المضحكات : يحجب المتعة بالنكتة كما يحجب المتعة بالجمال والجلال واللذة وبدائع الفنون على الإجمال .

ويؤكد هذا ما لاحظناه آنفا على تعريف أرسطو الذى يشترط فى الدمامة المضحكة ألا تبلغ حد الإيلام . فإن الإنسان البليد لايتألم ولايفطن للضحك فى وقت واحد ، وإذا جمعنا اثنين أحدهما مرهف الإحساس والذهن والآخر ثقيل الإحساس والذهن فلا يلزم أن يكون هذا أكثر فطنة للضحك من ذاك لأنه بطىء الألم . بل يبطىء شعوره بالألم وشعوره بالضحك فى وقت واحد ، ويغفل عن التشويه كله بجميع درجاته فلا يلمحه ولايحسه فى درجة من الدرجات .

ومن ثم ننتهى بعد ما تقدم إلى الثقة من شرط واحد فى المضحكات وهو شرط المفاجأة التى تتحول بالشعور عن مجراه . فإذا كان الشعور جاريا فى مجراه - كشعور الحزن العميق - فالمفاجأة لاتدفعه إلى الضحك ، وإذا كان فى المجلس نفسه أحد لايبلغ منه الحزن ذلك المبلغ من العمق والاستغراق فإنه يضحك من المفاجأة لأنها تستطيع أن تتحول بالمنظر ، أو المسمع ، من حس الأعصاب إلى حركة العضلات .

رأى برجسون

والرأى الثانى بين الآراء النموذجية هو رأى هنرى برجسون الفيلسوف الفرنسى صاحب مذهب دفعة الحياة .

ورأيه فى الضحك أنه فى وقت واحد تطور منطقى وحاسة اجتماعية .

فنحن نضحك إذا رأينا إنسانا يتصرف تصرف الآلة ويقيس الأمور قياسا آليا لا محل فيه للتمييز المنطقى . ولكننا نضحك فى الجماعة عامة ولانضحك منفردين لأن الضحك تنبيه اجتماعى أو عقوبة اجتماعية لمن يغفل عن العرف المتبع فى المجلس أو فى المحفل أو فى الهيئة الاجتماعية بأسرها . .

والضحك عند برجسون إنسانى بمعانى الكلمة جميعا ، فلا يشاهد فى غير الانسان ولايستثيرنا الضحك فى غير عمل إنسانى أو عمل تربطه بالإنسان . .

فنحن لا نضحك من منظر طبيعى أو من جماد كائنا ما كان إلا إذا ربطناه بصورة إنسانية . وجعلناه شبيها بإنسان نعرفه أو منسوبا إلى عمل من أعمال الناس . وقد نضحك من قبعة نراها فلا يكون الضحك من القبعة بل من الإنسان الذى يلبسها ونتصور هيئته فيها .

ومن شروط الأمر المضحك عند الفيلسوف أن يكون عملا إنسانيا بغير معنى . أو يكون المعنى فيه مطردا على طريقة آلية كأنه من أعمال الأدوات المجردة من التفكير .

ومن شروط الأمر المضحك عنده أن يحصل فى جماعة أو يرتبط بالتصرف فى الجماعة . فقلما يضحك الإنسان على انفراد إلا وهو مستحضر العلاقة الاجتماعية فى ذهنه ، وقلما ننظر إلى أحد يضحك على انفراد إلا خامرنا الشك فى عقله ما لم يكن له عذر نعلمه . فلايزال الضاحك على انفراد محتاجا إلى اعتذار وتوضيح .

لهذا يقرر برجسون أن الضحك مرتبط بالتصرف المنطقى وبالحاسة الاجتماعية فى وقت واحد . فهو وسيلة من وسائل المجتمع لحمل أبنائه على التصرف فيه تصرف الراشدين الذين يفقهون معنى ما يصنعون . .

ويفسر الفيلسوف أنواعا كثيرة من الضحك على ضوء هذه الشروط . فيقول مثلا أن مرونة الحركة تهم الأطفال كثيرا فهم يضحكون من كل حركة تصطدم بغير وعى ويفقد فيها المرء قدرته على المرونة ، ويقول إن كل خلل فى الحركة يضحكنا إذا قارنا بين الخلل والواقع ، وبين اللباقة التى تستدعيها تمام الخلقة والتكوين والتصرف المعهود . وكثيرا ما يضحكنا شرود الذهن لأن الإنسان الذاهل ينسى عقله وحاسته الاجتماعية أو يعمل على غير ما تقتضيه الحالة التى هو فيها .

ويومىء الفيلسوف إلى مناظر المحاكاة فيقول أن المحاكاة تضحكنا لأنها عمل يشبه عمل الآلات وتضحكنا لأنها تلفت النظر إلى الغفلة أو التناقض فى الإنسان المحكى لأنه شبيه بالآلات ، وإذا رأينا وجهين يتشابهان تشابها تاما ضحكنا لأننا نتصور أنهما مصنوعان فى قالب واحد كما تصنع الوجوه التمثيلية . .

ويضحكنا أن يتحكم الجسد فى العقل والإرادة تحكما غير مناسب للموقف الحاضر ، فنضحك من الخطيب الذى تغلبه الحماسة والعطاس فى وقت

واحد . ويضحكنا أن نرى أمامنا أحدا يطبق على الأحياء أحكام الآلات . وهذا هو سر ضحكنا من الطبيب الذى يقول للمريض أن موته باطل لأنه لم يجر على وفاق الأصول المتبعة .

ويضحكنا الرجل الذى تتكرر فى كلامه لازمة محفوظة نتوقعها فنضحك حين نسمعها .

وهذا المثل من أمثلة برجسون جدير بالانتباه إليه . لأنه يرجح رأيه على آراء القائلين بشرط المفاجأة فى الضحك .

فالرجل الذى يكرر لازمة واحدة يضحكنا حين نسمع ما ننتظره منه فلا يقال إذن أنه يضحكنا بالمفاجأة . بل يصح فيه رأى برجسون وهو الرأى الذى خلاصته أن المضحك من أعمال الإنسان هو الذى ينساق فيه انسياق الآلات .

* * *

ونحن نستدرك ما يستدرك من هذه الآراء فى أثناء تلخيصه . وقبل الانتقال إلى التعقيب الأخير عليه . لأننا نحب أن ننتهى إلى النتيجة خالصة من الاعتراض والاستدراك خالية من اللبس ودواعى الإطالة فى المناقشة والتمحيص .

والمثل الذى يجب الانتباه إليه من أمثلة برجسون يرجح رأيه على رأى القائلين بالمفاجأة لأول وهلة . ولكنه لايلبث أن يعود بنا إلى القول بالمفاجأة من جانب آخر .

فمشابهة الآلات هى فى ذاتها مفاجأة مستغربة من الآدميين العقلاء . ولهذا يتفق القولان ولايتناقضان . ويجوز أن يقال أن المفاجأة ومشابهة الآلة شىء واحدة . وأن مشابهة الآلة باب من أبواب المفاجأة لايستوعبها ولايمنع الضحك من غيرها .

وأما الضحك من تكرار اللازمة التى ننتظرها فهو لايدل قطعا على نفى المفاجأة أو على الضحك من الشىء لأنه منتظر ... بل هو نوع من استعادة الضحك السابق كما نبتسم عندما يمر بخاطرنا تمثيل دور مضحك شهدناه من قبل ونود أن نعيده ونتملاه من جديد ...

وهذا المثل - بالذات - أصلح الأمثلة لتوضيح الحقيقة فى هذا الخلاف .

فاللازمة المتكررة لابد أن تتكرر [illegible] محفوظة وحين نبدأ بالاستماع إليها لا نلاحظ أنها لازمة [illegible] غير مناسبة إلا إذا سمعنا صاحبها يتكلم فى مسائل شتى [illegible] على اختلاف هذه المسائل وتناقضها . ومتى ثبت لدينا [illegible] فإنما نحن نستعيد ضحكا سابقا ولاننشئ الضحك [illegible] على هذا النوع من الضحك أنه من قبيل استعاد المناظر [illegible] ضحكنا منها وأحببنا أن نتملاها ونرجع إليها حينا بعد حين .

* * *

ونستطرد بعد هذا فى سرد الأمثلة [illegible] ينطبق عليها رأى برجسون . ومنها غير ما تقدم مثل الشاعر [illegible] الشطارة أو مثل الفخ الذى يقع فيه واضعه . فإن هذا الشاعر [illegible] يتصرف كالآلة حين ينعكس عليه عمله وهو أحق من سواه [illegible]

وهذا المثل - كالمثل السابق - يمكن [illegible] برجسون ورأى القائلين بالمفاجأة معا . لأننا نتوقع من الشاطر [illegible] حيلة ونشعر بالمفاجأة حين يقع غير المتوقع وهو انخداعه بما يخدع [illegible]

ويعلل برجسون ضحك الكثيرين من [illegible] بأنها تحول الذهن من المعنويات إلى الحسيات . لأن الكلمتين [illegible] تتشابهان فى اللفظ وتختلطان فى المعنى . فيتصور السامع [illegible] وهو يفكر فى المعانى الأخلاقية أو الذهنية . وهذا الضحك [illegible] الضحك من الخطيب الذى تأخذه الحماسة لفكرة من الأفكار [illegible] فإنه فى هذا الموقف مغلوب لضرورات جسده الآلية [illegible] على الرغم منه كما تتصرف الآلات .

وعلى هذا النحو مواجهة الذهن [illegible] متجانستين إحداهما مادية والأخرى معنوية ، وتلحق بالجناس [illegible] والاستعارة والمجاز وسائر الكلمات التى تواجه الذهن بصورتين [illegible] بالإنسانية والأخرى غير لائقة . كأن يقال عن أحد أنه من أهل [illegible] أو أنه فنان . أو أنه جبل . أو أنه طويل الباع .

والحاسة الاجتماعية عند برجسون [illegible] جميع الأسباب . فالضحك إذن ملكة اجتماعية يراد بها تصحيح [illegible] معاملة الجماعة . وهو يتناول

الأخطاء التى لاتبلغ حد الإجرام لأن المجتمع يعالج يعالج هذه بالجزاء القانونى أو بالانتقام . ويتناول الأخطاء التى ينبو عنها الذوق كل النبو مع سوء النية لأن المجتمع يداوى هذه بالنفور والاشمئزاز وإنما يكتفى بالضحك من الأخطاء التى يسهو فيها الإنسان عن التقاليد الاجتماعية على غير قصد وبغير نية سيئة .. فهذه الأخطاء يكفى فى التحذير منها أن يتعرض صاحبها للضحك وأن يكون هذا الضحك عقوبة على قدر الإساءة العارضة ، فيحسب فى هذه الحالة كأنه قانون خفيف حيث لا حاجة لتطبيق القانون الذى يحمى المجتمع من الجرائم والأضرار الجسام .

بل يكاد يكون الضحك عقابا اجتماعيا خفيفا لمن يدينون بالأحكام الحرفية ويطبقون القواعد فى دقة وصرامة توحى إلى الذهن أن الذى يطبقها آلة لاتفكر ولا تحس بما تصنعه ولاتفرق بين جزاء وجزاء وتقدير وتقدير ..

ففى هذه الحالة يكون الضحك تصحيحا للأحكام المبالغ فى « دقتها الحرفية » لأنها صفة آلية لاتليق بالقياس المنطقى والتقدير السليم .

وزبدة الأمثلة جميعا فى رأى برجسون تلخص أسباب الضحك فى حماية المنطق الإنسانى وحماية الحاسة الاجتماعية على الخصوص . فكلما هبط الإنسان من مرتبة التصرف المنطقى الذى يناسب علاقاته الاجتماعية كان ذلك مثيرا للضحك منه لتنبيهه إلى تقصيره ، على شريطة الوقوف بهذه الأخطاء عند حد لايبلغ الإجرام ولا يدخله سوء النية . بل يخلو من كل قصد يقصده الكائن العاقل المتصرف . فيرتد إلى الحركة الآلية التى تتجرد من المقصد فى جميع الحركات .

رأى فرويد

بقى من الآراء النموذجية رأى سيجموند فرويد Freud الطبيب النفسانى صاحب المذهب المشهور الذى شاع وشاعت مصطلحاته على الألسنة حتى أصبح حديث الوعى الباطن والعقد النفسية ومركب النقص وما إليها من أحاديث الخاصة والعامة ، وكاد هذا المذهب أن يستأثر بتفسير خفايا النفس البشرية فى مسائل الأخلاق والعادات والبواعث الفردية والاجتماعية .

وقد أفرد الطبيب النفسانى رسالة مسهبة للكلام على النكتة ومدلولاتها الاجتماعية والفنية ومواطن الشبه بينها وبين الأحلام والرؤى فى الوظيفة التى تؤديها للفرد وللجماعة .

وزبدة رأى فرويد أن النكتة ضرب من القصد الشعورى والعملى يلجأ إليه الإنسان فى المجتمع ليعفى نفسه من أعباء الواجبات الثقيلة ويتحلل من الحرج الذى يوقعه فيه الجد ولوازم العمل . وأن النكتة تشبه الحلم فى أساليبه وهى التورية والتأويل والاختزال والمسخ والتلفيق . أى جمع الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لاتجتمع فى الواقع .

والناس يقولون عن الرجل أنه يمزح أو يقولون عنه أنه يحلم على السواء حين يريدون اعفاءه من المؤاخذة ولايريدون الجد معه فى المحاسبة والتحقيق . وكأنما يحتال المرء بالفكاهة على بلوغ أمر لايبلغه بالحجة والدليل ، وكذلك يحتال فى أحلامه على تحقيق الأمانى التى تفوته فى اليقظة وتشغل باله على غير جدوى . فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم على صعوبة واحدة وهى تيسير الواقع والإعفاء من الكلفة والمشقة .

وقد أورد فى رسالته أمثلة كثيرة سنشير إلى بعضها ونكتفى هنا بنادرة واحدة من النوادر الفكاهية التى تساوى الأحلام فى رفع الكلفة والسماح لقائلها أو سامعها بما هو محظور عليه إذا جد فى القول وعبر عن غرضه بالكلام الصريح :

رجلان من أصحاب الملايين صنعا صورة لهما عند رسام مشهور وعرضت الصورتان فى معرض عام وبينهما فجوة تتسع لصورة ثالثة . فقال أحد الناظرين وهو يتأمل الصورتين وينظر إلى الفجوة التى بينهما : هاهنا متسع لصورة السيد المسيح .

وسمع الواقفون كلمته وعلموا أنه يقول عن صاحبى الملايين أنهما لصان ، لأن القصة المسيحية تقول إن السيد المسيح وضع على الصليب بين لصين ، وعلموا أيضا أنه يعنى أنهما يستحقان الصلب كما استحقه أولئك اللصان ، ولكنهم ضحكوا . وسمع صاحبا الصورة ما قيل فلم يجدا سبيلا إلى مؤاخذته أو رفع أمره إلى القضاء ، ولعلهما لو فعلا لاتهمهما الناس بالجلافة وجرا على نفسيهما من السخرية ما كانا فى غنى عنه ..

ويريد فرويد منا فى هذه النادرة وأشباهها أن نتخيل قائل النكتة وهو يحلم ويعزى نفسه عن الحرمان من الثراء . فإنه سيخلق فى منامه قصة يتمثل فيها صاحبى الملايين مشهرين بين الناس بالسرقة أو مسوقين إلى ساحة القضاء أو مغلقين وراء جدران السجون ، فيعمل الحلم عمل النكتة فى ترضية الرجل بأسلوبين مختلفين يصدران من باعث واحد لغاية واحدة .

ويسرد فرويد أنماطا من النكتة تشترك بين الجناس والمغالطة ورد الحيلة بحيلة من قبيلها والتفاهم على الكذب والأجوبة المسكتة وكشف السر على غير قصد وغيرها من المضحكات مما ينطبق عليه تعليله بسهولة أو ينطبق فى صعوبة وتعسف .

وهذه أنماط منها ننقلها بغير ترتيب ، ونبدأ منها بنادرة تشبه النوادر التى تروى عن قره قوش وتصلح للدلالة على وحدة المنطق الفكاهى بين الناس على تباعد الأقطار والأجناس .

يروى فى بعض قرى المجر أن حدادا اقترف جريمة يعاقب عليها بالموت . فحار قاضى القرية فى أمره لأنه الحداد الوحيد فى القرية ولاتستغنى عنه بغيره إذا نفذ فيه الحكم ، ثم اهتدى بعد التفكير إلى حل المشكلة بإعدام الطرزى بدلا منه لأن القرية فيها طرزيان !

ومن الأقوال المضحكة التى استشهد بها فرويد قول الشاعر هاينى فى امرأة يعيبها فى قالب الثناء فيقول أنها تشبه تمثال الزهرة « فينوس » .. لأنها مثلها عتيقة جدا . ومثلها بغير أسنان . ومثلها فى البقع البيضاء على بشرتها الصفراء .

وشبيه بهذا الثناء المعكوس قول القائل عن رجل يهجوه أنه يشبه جميع العظماء . فهو كالاسكندر ينحرف رأسه إلى جانبه . وكيوليوس قيصر يكمن شىء فى شعره على الدوام ، وهو يفرط فى شرب القهوة إفراط ليبنتز . وينسى الأكل والشراب إذا جلس على المائدة كأنه إسحاق نيوتن . ويحتاج كما يحتاج اسحاق نيوتن إلى من يوقظه .. وهو يلبس الشعر المستعار كالدكتور جونسون . ويترك سراويله مفتوحة كمؤلف دون كيشوت .

ومن نوادر فرويد عن اليهود ـ وهو يهودى ـ أن يهوديا رأى على لحية زميله بقايا طعام فقال له : « إننى أستطيع أن أذكر لك الصنف الذى أكلته بالأمس» . قال زميله : « حسن ، قل ودعنا نسمع » فقال له صاحبه المتعالم : « أنك أكلت فولا » .. فسخر منه آكل الفول وقال : « كلا . إنك غلطان يا هذا . فإننى أكلته أول أمس » !

وتلاقى يهوديان فى القطار فسأل أحدهما الآخر : « إلى أين تذهب ؟ » فأجابه الآخر : « إلى كراكاو » فغضب السائل وعاد يقول : لماذا تكذب على ؟ .. إنك تعلم أنك إذا قلت لى أنك ذاهب إلى كراكاو فهمت أنا أنك

ذاهب إلى نبرج .. ولكننى أعلم فى هذه المرة أنك ذاهب حقا إلى [illegible] فلماذا هذا التكذب ؟ » .

ويذكر فرويد من فن النكتة أسلوبا يعتمد على اللعب [illegible] من هدفها أضحوكة سهلة ، ومن قبيل هذه النكات قول [illegible] فلانا له مستقبل عظيم وراءه ! » .. وقوله عن وزير زراعة [illegible] فعاد إلى حقله : « أنه عاد إلى مكانه أمام المحراث » !

ويذكر أسلوبا يعتمد على اللعب بصفة واحدة تختلف [illegible] عن فتاة كانت على اتصال بجميع رجال الجيش : « أنها [illegible] لأن الجيش لايصدق ببراءتها » .

ويذكر المغالطة فى الجواب ، ومن قبيلها أن رجلا قصد [illegible] وأفهمه أنه فى عسرة شديدة وأنه يحتاج إلى قرض يسير [illegible] محققة . وبعد إعطائه القرض بساعة رآه المحسن ينفق [illegible] مطاعم الطبقة العليا وأمامه صفحة من السمك الفاخر فقال [illegible] تنفق المال الذى تستعيره للضرورات تتأكل به الصحاف [illegible] المحتال وكأنه دهش من سؤاله : « عجبا لك يا سيدى ! [illegible] إن كنت لا آكلها مفلسا ، ولا آكلها وفى يدى ثمنها ؟ »

وعلى هذا النمط قصة مدرس فى إحدى القرى [illegible] يدمن السكر حتى اعتزلته جميع الأسر ونفر منه تلاميذه [illegible] قائلا : « إنك تستطيع أن تجمع عندك تلاميذ القرية [illegible] الشراب ، فلماذا لاتحاول وتجرب ؟ » فأجابه المدرس السكير [illegible] هذا .. إنما أعطى الدروس لأجد الشراب فهل ترانى [illegible] الدروس ؟ » .

وقريب من هذا اللعب بالمقابلة قول القائل فى تفاهة [illegible] نقضى نصفها الأول متطلعين إلى الثانى ، وننقضى نصـ[illegible] على الأول ! » .

وسمع فولتير قصيدة روسو الشاعر الفرنسى الذى كتبها [illegible] إلى الأجيال المقبلة . فعقب عليها قائلا : « هذا خطاب [illegible] إليه » .

وللأجوبة المسكتة نصيب وافر من أساليب الضحك عند فرويد . وهذه أمثلة منها :

كان القيصر أغسطس يسيح فى أرجاء ملكه فلمح شخصا يشبهه كل الشبه . فسأله :

ـ أكانت أمك تعمل فى بيتنا ؟

فأجابه الشبيه الجرىء :

ـ كلا . . بل كان أبى . . !

وكان بعض الوعاظ الأمريكيين ينادى بحقوق السود فى بلد ليس فيه كثير من السود . فقال له رئيسه :

ـ لم لا تذهب إلى كنتكى حيث يقيم أصحابك ؟

فسأله الواعظ المسئول :

ـ ألست يا مولاى تعمل لإنقاذ الأرواح من النار . فلماذا لاتذهب إلى جهنم ؟

ويتخلل الأمثلة كلها نوادر متفرقة تعتمد على الجناس اللفظى الذى لا ينقل من لغة إلى لغة ولا حاجة إلى نقله لكثرة هذه الفكاهات الجناسية فى اللغات جميعا ولاسيما العربية . ثم يختم الرسالة بتلخيص لتقسيم المضحكات إلى ثلاثة أقسام : النكتة Commic Wit والهزل والدعابة hu-mour .

وكلها مما يفسر عنده بالقصد فى القوى النفسية . ولكن النكتة قصد فى العاطفة التى يكلفنا كبتها الكثير من مجهود النفس ، والهزل قصد فى الفكر والمنطق ، وأما الدعابة فهى قصد فى الإحساس ، وأننا نتطلب هذه الأفانين جميعا بعد سن الطفولة التى لاتعرف المفارقات المضحكة ولاتقدر على تفكير النكتة ولاتحتاج إلى الدعابة لتشعر بالسعادة . .

وإلى هنا يبدو لنا أن الأمثلة التى استشهد بها رائد المدرسة النفسية الحديثة لاينطبق عليها تفسيره فى جميع الأحوال . وأن القصد فى الشعور أو التفكير قد يتحقق بالنكتة أحيانا ولكنه لاينشئها ولا هى متوقفة عليه .

ولنرجع إلى نادرته عن اليهودى الذى قابل زميله فى القطار وسأله عن وجهته فصرح له بذهابه إلى كراكاو وعتب عليه زميله لهذا الكذب لأنه كان

سيذهب فعلا إلى كراكاو ولم تجر العادة بذكر الوجهة الحقيقية فى إجابة أمثال هذا السؤال .

فلا قصد فى هذه النادرة ولا ادخار ، وليس فيها موضع لزيادة فى المقال أو الاتهام . ولكنها تضحك السامع لأنها تفاجئه بغرابة اللوم لهذه المناسبة . فإن السامع يسمع اللوم على الكذب فلا يخطر بباله أن الكذب فى عرف المتحدثين هو الجهر بالصدق الصراح . ثم يفاجأ بسبب اللوم فتكون المفاجأة عماد الفكاهة هنا كما كانت عماد الفكاهة فى جميع النوادر التى استشهد بها فرويد من المغالطات أو التحريفات أو الأجوبة المسكتة . وليس فى الجواب المسكت قصد فى الشعور أو القول . ولكنه مثل واضح للمفاجأة على الخصوص حين يكون السائل على ثقة من إحراج المسئول فلا يلبث أن يأتيه الجواب السريع فيرتد الحرج إليه .

ويجوز لنا بعد هذه التعليقات الموجزة أن نفهم أن رأى برجسون ورأى فرويد لايناقضان تفسير الضحك من الوجهة الجسدية كما أجمله داروين فى كتاب التعبيرات ، وفصله سبنسر فى مقاله عن الضحك من الوجهة الفزيولوجية وأنهما لايغنيان عن ذلك التفسير فى النهاية سواء كان سبب الضحك فكرة أو مشاهدة حسية ، لأن نتيجته هى أن يتأثر الجسد به على النحو الذى ذهب إليه سبنسر وداروين من قبل .

مفاجأة تحبس الفكر أو الشعور عن مجراه فيتحول عنه إلى العضلات ويبدأ الأثر فى أسهل هذه العضلات حركة ثم يسرى إلى غيرها من عضلات الجسم كله إذا اشتد الباعث على الضحك .

ولا تناقض بين هذا وبين قول برجسون أننا نضحك من الإنسان إذا تصرف فى حركاته وأقواله تصرف الآلة الصماء . فإن هذا التصرف يفاجئنا بشىء لم ننتظره من إنسان عاقل تجرى أعماله على حكم المنطق الفطرى الذى طبع عليه الإنسان المسمى بالحيوان الناطق أو الحيوان المنطقى بعبارة أخرى . فنحن ننتظر عملا منطقيا فنرى أمامنا عملا آليا على غير انتظار أو على خلاف المنتظر ، وهذه هى المفاجأة التى ترجع بنا إلى تفسير داروين وسبنسر ، وقد ضحك الإنسان من النقائض المفاجئة قبل شيوع الآلات وخلق له جهاز الضحك قبل احتقاره التشبه بالآلة .

وقول برجسون أن الضحك تنبيه اجتماعى لمن يذهلون عن آداب البيئة لا

ينقض هذا السبب . لأنه فائدة من فوائد الضحك لاتفسر أسبابه ولكنها تدل على غاية من غاياته ، والفرق ظاهر بين الأسباب والغايات . .

ويرجع بنا رأى فرويد إلى المفاجأة كما يرجع بنا رأى برجسون إليها . فإن استخدام الضحك أحيانا فى « الاقتصاد الشعورى » هو أيضا من قبيل الفوائد التى يستفيدها منه وليست الفوائد كما تقدم معطلة للأسباب .

وليس فى النوادر التى تمثل بها فرويد نادرة واحدة تخلو من المفاجأة وتغنينا عن تفسير سبنسر أو تفسير داروين ، فالجواب المسكت مفاجأة ، والحيلة التى ترتد على صاحبها مفاجأة ، والتخلص السريع بالمغالطة التى تخالف المنطق المألوف مفاجأة . وتكذيب الجواب الصادق لأن الصدق غير مألوف من صاحبه مفاجأة ، وسائر النوادر التى نقلناها أو لم ننقلها ترجع بنا إلى علة المفاجأة من أقرب طريق .

وقد فرق الباحثون فى الضحك بين كثير من المضحكات لاختلاف أسمائها كما تختلف كلمات السخرية أو الاستهزاء أو الدعابة أو الفكاهة .

فإذا استرسل الناظر فى تتبع هذه الفروق وجد فى النهاية أنها تؤول إلى فروق بين أنواع الضاحكين وليست فروقا بين أنواع الضحك فى أصوله ، فالضحك كله مفاجأة تتحول بالفكرة أو الشعور عن مجراه .

ولكن السخرية التى تؤلم الناس أو تكشف عيوبهم ومثالبهم هى ضحك الشرير الخبيث .

والاستهزاء الذى يتعالى صاحبه على الناس هو ضحك المتكبر الذى غلظت نفسه فلا يبادلهم الشعور . أو هو ضحك العابث الذى يستخف بكل شىء ويجد الناس وهو ناظر إلى جدهم بغير اكتراث .

والدعابة التى يشترك فيها الضاحك والمضحوك منه هى ضحك القلب الطيب الذى يسر نفسه ويسر غيره بما يكشفه من هفواتهم أو يعرضه من نقائصهم ، فلا يحسون أنه يرفدهم بتلك النقائص أو يأخذ تلك الهفوات مأخذ الشماتة والخيلاء .

والفكاهة التى تمثل لنا المضحكات هى ضحك الفنان أو الناقد الذى يصور لنا دواعى الضحك ويبدع فى تصويرها وتمثيلها ، فهو مضحك وليس بأضحوكة ، أو هو واضع الضحك وليس بموضوع للضاحكين .

وهذه كلها فوارق بين الضاحكين وليست فوارق بين أنواع الضحك فى الصميم . .

ومن الشائع جدا أن يقترن بالضحك شعور الغبطة بتفوقنا على الآخرين . ولكن لايندر أن نضحك من أنفسنا إذا فوجئنا بالهزيمة التى لانتوقعها فى موقف نظن فيه أننا نحكم الشبك لغيرنا فإذا هو قد أفلت من تلك الشبك وأوقعنا فيها .

ومن هذه الهزيمة المفاجئة ضحك الساسة والأمراء حين بلغهم إفلات نابليون من جزيرة ألبا وعودته إلى فرنسا وهم يحسبون أنهم وضعوه فى القفص وجلسوا بعده يقررون مصير القارة الأوروبية من بعده .

ولو أنهم فوجئوا بنابليون يحاصرهم فى مؤتمرهم ويهددهم لساعته فى أرواحهم أو عروشهم لما ضحكوا كما ضحكوا وهم آمنون فى تلك الساعة .

إلا أن هذا لاينفى أن المفاجأة مضحكة ، وأن السامع البعيد يضحك منها وإن لم يضحك منها الساسة والأمراء المحاصرون لاشتغال شعورهم بالخطر القريب . ولهذا يبقى عنصر المفاجأة قائما فى تفسير أسباب الضحك ويختلف الأمر بحسب الضاحكين فى الشعور بالخطر ساعة المفاجأة ، فمن كان قريبا شغله الخوف عن الضحك ومن كان بعيدا لم يشغله عنه خوف عاجل يغطى على شعوره فى تلك الساعة .

ويتساوى فى هذا الشعور بالضحك والشعور بالجمال والشعور باللذة ، فلو كان المعروض على مؤتمر الساسة فتنة من فتن الزهرة ربة الجمال وحاصرهم العدو المهدد لحياتهم لشغلهم الخطر عن الشعور بذلك الجمال الفتان ، ولو كانت مائدة طعام جمعت ما لذ وطاب بين أيديهم ثم حوصروا ذلك الحصار لشغلهم الخطر كذلك عن طلب الطعام والقوت .

فلا يلزم إذن أن نقول أن الشىء المضحك هو الشىء المشوه الذى لم يبلغ درجة الإيلام ، لأن بلوغ درجة الإيلام يعطل كل شعور ولايعطل الشعور بالمضحكات دون سواها .

وصحيح ـ بعد هذا ـ أن نجمل التفسيرات جميعا فنقول أن الضحك ينجم عن مفاجأة تتحول بالفكر وبالشعور عن مجراه ، وأن الاختلاف بين السخرية والاستهزاء والدعابة والفكاهة لا يلجئنا إلى البحث عن اختلاف فى أنواع الضحك لأنه هو فى لبابه اختلاف بين الضاحكين .

الضحك فى الكتب الدينية

فى القرآن الكريم

لايتقابل شعوران من طرفى التعظيم والاستخفاف كما يتقابل الشعور بالمقدس والشعور بالمضحك فى النفس البشرية .

ولايوجد لنا مرجع نعتمد عليه فى هذه المقابلة الواقعية أولى بالرجوع إليه من الكتب المقدسة ، ولاسيما الكتب التى تسوق العبرة من القصص والأمثال وتروى الأخبار عن الضحك والضاحكين من مختلف الطبائع والأمزجة وفى مختلف المناسبات .

وهذه الأخبار متكررة فى القرآن الكريم . وكلها شاهد محكم للعالم النفسانى يركن إليه فى تفسيره لأطوار النفس البشرية ، حيث تبرز حقيقة الضحك مع سياق الكلام عنه فى كلام مقدس ، لبروز الفارق بين الشعورين : شعور القداسة فى موضعها وشعور الضحك بشتى معانيه .

جاءت الإشارة إلى الضحك فى القرآن الكريم مرة فى قصة إبراهيم ومرة فى قصة سليمان عليهما السلام .

ففى قصة إبراهيم يقول إبراهيم حين زاره الملائكة فلم يعرفهم وخافهم ثم بشروه بولادة إسحاق من زوجته سارة :

« ... فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة قالوا لاتخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا إن هذا لشيء عجيب » ..

فهنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار ، فتعجب لا تملك سارة أن تجهر به فتقول : إن هذا لشيء عجيب ..

كل عوامل الضحك النفسية التى ظهرت للباحثين النفسانيين فى تفسيراتهم - تعرضها هذه الآية الكريمة على نسقها المتتابع فتأتى بالضحك حيث يأتى الضحك مطردا فى مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمأنينة بعد خوف . ومعرفة بعد نكران ، وبشارة بما ليس فى الحسبان من الولادة بعد سن

اليأس وخيبة الأمل فى الذرية زمنا طويلا تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعى الحزن والعزاء والغيرة والتسليم .

ولاتغنى هنا كلمة « سرت أو كلمة استبشرت أو فرحت » فى مكان كلمة ضحكت . فإن الضحك هو الأثر الملائم لهذه الحالة التى تشابكت فأصبحت فى قرارة النفس حالات متناقضات .

* * *

وجاء فى القرآن الكريم عن قصة سليمان عليه السلام : « حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة : يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى وأن أعمل صالحا ترضاه » .

فها هنا عوامل الضحك على سجيتها ماثلة فى نقائضها الدقيقة ومصاحباتها التى تقترن بها على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهى مناسبة مخالفة فى بعض أجزائها لمناسبة الضحك فى قصة إبراهيم .

هنا الفارق الشاسع بين ضآلة النمل وبين ضخامة الملك الذى أوتيه سليمان ..

وهنا رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض فى نفسه من السعة ولا يغبه عنها ما تقول .

وهنا رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض فى نفسه من السعة والغبطة وتلهمه من الشكر والخشوع ، وكل ذلك آت من حيث لاينتظر : من نملة ضئيلة تخشى أن تحطم هى وواديها كلها ولايشعر بهم سليمان العظيم ..

وورد الضحك فى آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء ، فجاء فى سورة المطففين : « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون » .

فالضحك هنا مقترن بالتغامز الخفى ، كأنما يحسب المستهزئون أنهم يستغفلون المؤمنين الذين يمرون بهم فيسخرون منهم بالتغامز بينهم ، ويضحكون إذا التفت إليهم المؤمنون على حين فجأة فلا يملكون إخفاء العبث

والسخرية ، كما يحدث دائما بين المتغامزين إذا انكشفوا وامتنع عليهم الكتمان والتمادى فى الاستهزاء من وراء الأنظار .

والضحك الأخير يأتى حين لم يكن فى الحسبان ، لأن الكفار كانوا يضحكون فإذا بهم قد انقلب عليهم الأمر فهم أضحوكة للضاحكين ، وهؤلاء وادعون على الأرائك ينظرون .

وجاء فى سورة الزخرف : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملأه فقال إنى رسول رب العالمين فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون » .

وضحك المفاجأة هنا واضح من طلب الآيات ثم إخلاف ظن موسى عليه السلام لأنهم عبثوا به وهو ينتظر منهم بعد مجيئهم بالآيات أن يؤمنوا فإذا هم يفاجئونه بما لم ينتظر من اصرارهم على الكفران .

ولابد فى كل ضحك من الشعور بالمفاجأة فى الضحك أو فيمن يتعرض للضحك . فهو شعور ملازم للمضحكات من طرفيه .

وفى سورة النجم عن نوح عليه السلام : « وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى والمؤتفكة أهوى فغشيها ما غشى فبأى آلاء ربك تتمارى هذا نذير من النذر الأولى أزفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولاتبكون وأنتم سامدون فاسجدوا لله واعبدوا » .

ففى هذه الآيات يحسب الرسول أنه يأتيهم بما يبكيهم فلا يحسون داعية للبكاء ويستغربون فينتقل بهم الاستغراب من أحاديث الرسول عن نذير الآزفة المطبقة إلى الأمان الذى يتصورونه ولايحسون غيره . وبين هذين النقيضين المتباعدين يتعجب القوم ويضحكون : موقف لا وسط فيه بين البكاء والضحك . فأما أن يحس السامع نذير الآزفة فيبكى أو يستغربها ويستبعدها فيضحك تعجبا من كلام القائل واطمئنانه إلى الأمان الذى يقال لهم أنهم مهددون فيه .

والضحك من البلاء الذى لايحسه السامع ويحس نقيضه كالضحك من البلاء الذى يحسه ويحس أنه ناج منه ، وقد تكرر ذكر الضحك بهذا المعنى فجاء فى سورة التوبة عن المخلفين الذين فرحوا بمقعدهم عن القتال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لاتنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » ..

... الضحك أيضا مقرون بالسماع عن الخطر مع الشعور بالأمان . فهو ... كالشعور بالخطر حيث يغلب اليقين بامتناعه أو يمتنع بعد نذير ...

... في القرآن الكريم ذكر الضحك بمعنى السرور لأنه يلازمه في معظم ...

... السخرية والاستهزاء . وهما في أكثر الآيات بمعنى الاستخفاف ... بمعنى تتردد بين حالتين : حالة ظاهرة وحالة باطنة تناقضها ، ... نقل الشعور بين هاتين الحالتين سبب من أسباب الضحك على ... « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم ... معكم إنما نحن مستهزئون الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم ...

... ورد فيها ذكر السخرية إلا كان فيما تحتويه شعور قوم فارغين ... الأنبياء ونداءهم في غير طائل على ما يبدو لأولئك الفارغين ، ... من السخرية في قصة نوح لأنه من جهة ينذر ويحذر ... العميق ، وهم من جهتهم وادعون غافلون يرون به وهو جاهد ... فيتضاحكون :

... وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا ... منكم كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ... مقيم » .

... جانب نوح وجانب قومه ـ فيه أمان مع خوف يتناقضان . ... المشقة التي تقابلها ، فكلاهما عنده سبب للسخرية بين ...

في التوراة

... الفيلسوف العبري بالتوراة عن ضحك الإله ممن يغترون ... يجترئون عليها ثم يعجزون عنها .

... من المزمور الثاني الذي يقول ناظمه إنه يسمع دعوى ... بما يريده الرب على عرشه ، وهذا نص المزمور :

... وتفكر الشعوب في الباطل

« قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معا على الرب وعلى مسيحه ، لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما

« الساكن في السماوات يضحك .

« الرب يستهزىء بهم . وحينئذ يتكلم عليهم بغضبه ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكي على صهيون جبل قدسي .

« إنني أخبر من جهة قضاء الرب » .

فالضحك هنا يترجم عن حالتين متناقضتين : أحداهما غرر ظاهر بالقوة ، والأخرى حقيقة هذا الغرور العاجز الذي لا قبل له بما يدعيه .

والاختلاف بين هاتين الحالتين هو مثار الضحك مجازا بالنسبة للإله . وحقيقة بالنسبة إلى الإنسان .

وجميع ما ورد في العهد القديم عن الضحك فإنه يفهم الضحك فيه بمعنى الاستهزاء والسخرية إذا كان من المنكرين ، وبمعنى الاستغراب والدهشة إذا كان من المؤمنين .

وجميع هذه الشواهد ينحى على المستهزئين لأنهم يستكبرون ولا يصدقون فهم يستهزئون بالأنبياء لأنهم يرونهم بأعينهم مدعين القدرة ظاهرا وعلى غير شيء في الباطن ، والأنبياء يستهزئون بهم لأنهم يرون الحقيقة معكوسة من جانبهم على أولئك المنكرين المستكبرين ، فهؤلاء المنكرون المستكبرون هم الذين ينتفخون على هواء ، ويرى النبي صورتهم منتفخة وصورتهم الخاوية فيرى منهم تناقضا يوحي بالاستهزاء ، ولاسيما حين يغتر أصحابه فيستهزئون بالعارفين .

ففي سفر أشعيا يقول النبي عن الأمراء والسادة : « اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء ـ ولاة هذا الشعب الذي في أورشليم » .

وفي الأمثال من الإصحاح الأول كلام عن ضحك الشماتة والاستهزاء يقول فيه صاحب السفر : « أني دعوت فأبيتم ومددت يدي وليس من يبالي ، بل رفضتم كل مشورتي ولم ترضوا توبيخي . فأنا أيضا أضحك عن بليتكم ، أشمت عند مجيء خوفكم » .

وليس أكثر في كتاب الأمثال من الإشارة إلى الاستهزاء بمعنى الكبرياء والغرور والجهالة ، ومن الإشارة إلى جزاء المستهزىء وأثره السيىء في قومه وحكمة تأديبه لينتفع الحمقى بعبرته ويزدجروا بالنظر إلى مصيره .

مستهزىء يطلب الحكمة ولايجدها .

منتفخ المتكبر اسمه مستهزىء عامل بفيضان الكبرياء .

ـــ المستهزىء فيتذكى الأحمق .

معاقبة المستهزىء يصير الأحمق حكيما .

المستهزئون يفتنون المدينة ، أما الحكماء فيصرفون الغضب .

ـ الحكيم يقبل تأديب أبيه والمستهزىء لايسمع انتهارا .

* * *

الأمثال أكثر الكتب فى العهد القديم إشارة إلى الهزء والاستهزاء

من طبيعة السفر كله ، لأن الأمثال سفر الحكمة والتجربة وهما

ـ الذى يستخف صاحبه بجميع الأمور ولايزال كذلك حتى

ـ إلى الاعتبار بالحوادث وبعد النظر فى عواقب الأمور ، فإذا

ـ قال الشاعر العربى :

يضحك السفهـاء منهـا ويبكى من عواقبها اللبيب

ـ كتب العهد القديم كتاب تكررت فيه الإشارة إلى الاستهزاء كما

ـ الأمثال ، ولكنه جاء فى بعض الكتب على ندرة واختلاف

ـ ، وكادت قصة سارة فى سفر التكوين أن تنم عن ضحك

ـ والاستعظام ، لأنها لاتستهزىء بالبشارة ولكنها تستغربها

ـ لأول وهلة ، ولهذا يروى الإصحاح الثالث عشر عنها أنها

ـ وأنها أنكرت الضحك حين سمعت من ضيوف إبراهيم

ـ من صبغة الملام .

ـ أين سارة امرأتك ؟ فقال : هاهى فى الخيمة ، فقال إنى

ـ زمان الحياة ـ أى الربيع ـ ويكون لساره امرأتك ابن . وكانت

ـ فى باب الخيمة وهو وراءه ، وكان إبراهيم وساره شيخين

ـ الأيام ، وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء فضحكت سارة

ـ : أبعد فنائى يكون لى تنعم وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب

ـ ضحكت سارة قائلة : أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت . هل

يستحيل على الرب شىء ؟ فى الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن ، فأنكرت سارة قائلة لم أضحك ، لأنها خافت ، فقال لا بل ضحكت » .

فالمواضع التى ورد فيها الضحك فى كتب العهد القديم إنما كانت تنديدا بخليقة الاستهزاء والسخرية ، أو كانت بمعنى الاستهزاء الذى يرد الاستهزاء على أصحابه ، ومن هذا القبيل ما ينسب إلى الإله أو إلى عباده الصالحين . .

وبهذا المعنى نسب إلى أيوب حيث جاء فى سفره : « لاترفض تأديب القدر لأنه هو يجرح ويعصب ، يسحق ويداه تشفيان ، فى ست شدائد ينجيك وفى سبع لايمسك بسوء ، فى الجوع يفديك من الموت وفى الحرب من حد السيف . من سوط اللسان ، فلا تخاف من الخراب إذا جاء . . . تضحك على الخراب والمحل ولا تخشى وحوش الأرض » .

وهنا يعود أيوب فيهزأ بالخراب والمحل بعد أن كان ضحكة لهما أو ضحكة للهازلين الذين حسبوه فريسة لهما وحسبوا ألا نجاة له من مصابه بهما وبغيرهما من ضروب المحنة والبلاء .

لا جرم يقال عن الضحك بمعنى الاستهزاء . كما جاء فى الأمثال : « أنه فى الضحك يكتئب القلب وعاقبة الفرح حزن » . . أو كما جاء فى الجامعة : « إن الحزن خير من الضحك لأنه بكآبة الوجه يصلح القلب . .

ولم يذكر الاستهزاء بخير فى كتب العهد القديم إلا أن يكون ردا على المستهزئين وعقابا للسخرية والمجون .

على أن الضحك قد ورد فى العهد القديم بمعنى السرور مقابلا للحزن مصحوبا بالغناء ، كما جاء فى المزامير بعد رد السبى « أننا . . . حينئذ امتلأت أفواهنا ضحكا وألسنتنا ترنما » .

ولايلزم فى هذا المعنى تفسير الضحك بالأسباب التى أجملناها فيما تقدم ، ولكنه ـ على هذا ـ لايخلو من الشعور بالنقيض بعد النقيض ، إذ ينتقل المرء من الأسر إلى الطلاقة ، فيعبر عن فرحه بالضحك والغناء .

فى الإنجيل

أما فى العهد الجديد فقد جاء ذكر الضحك فى إنجيل لوقا على لسان السيد المسيح حيث يقول وقد رفع عينيه إلى تلاميذه :

« ورفع عينيه إلى تلاميذه وقال : طوباكم أيها المساكين لأن لكم ملكوت الله . طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تشبعون . طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون » .

وهنا يأتى الضحك مقابل للبكاء ولايخلو من دواعى الضحك فى جميع الأحوال وأهمها تبدل الحالة والمقابلة بين النقيضين .

* * *

وهذه الشواهد من هذه الكتب الدينية التى يقرأها المؤمنون بها ويقدسون ما فيها - خير ما يستشهد به على طبيعة الضحك فى حالات متعددة ، لأن هذه الدواعى تبرز فى مواضعها بروزا واضحا بما يقابلها من شعور القداسة ، وتنبئنا عن أناس متباعدين فى الأزمنة والأمكنة والطبائع والأخلاق ، فنعلم أن الإنسان إنسان فى كل زمان ومكان ، وأن الضحك خاصة إنسانية تعم بنى الإنسان .

الإنسانية والفكاهة

أيا ما كان القول فى تعريف الضحك وتعليله . فمن أصح الأقوال مع جميع التعريفات والتعليلات أن الضحك - كما قال برجسون - ملكة إنسانية من طرفيها ، فلا يضحك إلا إنسان ، وما من شىء يضحكنا إلا أن يكون «إنسانيا» فى صورة من صوره ، ولو على سبيل التشبيه .

ولنا أن نقول إن الإنسان حيوان ضاحك كما نقول إن الإنسان حيوان ناطق . .

أفنعنى بذلك أن كل إنسان يضحك بلا استثناء ؟

كلا . إلا كما نعنى أن كل إنسان ينطق ويفكر ويتكلم بلا استثناء .

فهناك خرس لاينطقون ، وهناك بله لايفكرون ، وهناك صغار أو همج تتولاهم الغرائز على نحو قريب من سيطرة الغرائز على الأحياء التى لاتساوى البشر فى الخلق أو فى الذكاء .

ولكننا مع ذلك نقول إن الإنسان حيوان ناطق ونريد بذلك أنه ناطق «بالقوة» على اصطلاح المناطقة ، أو بالاستعداد العام فى أبناء نوعه كما نقول فى عرف المصطلحين ، وكذلك يقال إن الإنسان حيوان ضاحك ومنه جماعات بدائية لاتفهم الضحك ولاتدرى موقعه من أعمال الناس ، ولاتميز بين المضحكات وغيرها من الأعمال المخالفة للمألوف ، لأن مخالفة المألوف بين أبنائها ظاهرة نادرة جدا لانطباعهم على العرف المتوارث الذى لايخالفونه إلا وقعوا فى محظور « المحرمات » . . . مع قصورهم عن المقارنة التى تتضح منها النقائض ومواطن الضحك أو الاستغراب . .

ولعل هذا العجز عن الضحك فى هذا الطور من أطوار الإنسانية معزز لقول القائلين أن الضحك خاصة إنسانية لايشترك فيها عامة الأحياء فلا يضحك الإنسان وهو - بعد - قريب من أطوار الحيوانية فى حكم الغريزة وغلبة العادة على التفكير ، وإذا رجعنا إلى تفسير برجسون فى هذا الصدد فلا محل للمفاجأة هنا من جريان الإنسان على سنة الآلات فى اطراد العمل بغير تفكير ، فإن القبائل البدائية المعرفة فى الهمجية تجرى كلها على هذه السنة ،

ولايكون فيها مخالفا للمألوف إلا الذى يشذ بالتصرف على خلاف الوتيرة المطردة والنهج المرسوم .

أما بعد هذا الطور من الهمجية البدائية فالشعوب جميعا تعرف الضحك وتعرف واضعه وموضوعه بالتجربة العملية وإن لم تعرفه بالتفسير والتقسيم ..

ونريد بواضع الضحك من يخلقه بتمثيل المضحكات واختراعها وحكايتها كالفنانين والندماء ..

ونريد بموضوع الضحك من يكونون أضحوكة الناس بالغفلة أو النقص أو التصرف المتناقض الذى يحول شعور ناظره من وجهة إلى وجهة على حين غرة على الإجمال .

الأمم الضاحكة

وقد جرت عادة المعاصرين على وصف بعض الأمم بالفكاهة وتجريد بعضها منها أو وصفها بجهلها وبطء الإحساس بها عند المقابلة بينها وبين الأمم «الفكاهية» .

والثابت الذى لاشك فيه عن جميع الأمم أنها أخرجت نوابغ الفكاهة فى جميع أجيالها ، وأنها فى العصر الحاضر تمثل الفكاهيات وتعرضها على جمهرة من أبنائها ، فلا توجد أمة متحضرة لها تاريخ قديم خلت من نوابغ الفكاهة ومن آثار هؤلاء النوابغ فى الآداب والفنون .

ولكننا نرى أن إحصاء النوابغ هنا لايفيدنا كما يفيدنا دليل الأمثال التى يتداولها الناس ويتوارثونها جيلا بعد جيل ، فإن آثار النوابغ قد تكون مقصورة عليهم وعلى فئة من قرائهم أو من القادرين على الاستمتاع بفكاهتهم ، ولكن الأمثال الشائعة ترجمان صادق لتفكير الأمة وشعورها وطريقتها فى التعبير عن تجاربها ، وهذه الطريقة تكاد أن تتفق فى جميع الأمم أو تتقارب غاية التقارب فى المضامين والمرمى وإن لم تتقارب فى اللفظ والتركيب ..

وهذه أمثال الأمم بين أيدينا تقترن فيها الحكمة أو تأتى فيها الحكمة من طريق الفكاهة على أسلوب تمتزج فيه السخرية بالتهكم والعطف والدعابة ، وتأخذ فيه الحكمة مأخذ الجد والمزاح فى وقت واحد ، لأنها تشير إلى مراقب الخطل والحماقة إشارة التعقيب بعد مرور المئات من الأمثلة والقرائن

والمناسبات ، فهى تتكلم فى أمان بعد فوات الضرر وقبل وقوعه على المقصودين بالنصيحة والتذكير .

وعلى سبيل التمثيل بالواقع نستشهد هنا بالأمثال فى أمتين من أمم المشرق وأمتين من أمم المغرب ، يقال عن إحداهما أنها أمة ذات فكاهة أو أمة فكاهية ويقال عن الأخرى أنها لاتقطن للفكاهة وأنها اشتهرت بالجهامة وأخذ الأمور كلها بالجد والصرامة التى لاتعرف التورية والتلميح .

ففى المشرق أمة الفرس مشهورة بالنكات القديمة والحديثة من عهد الحضارة الكسروية . وأمة اليابان مشهورة بالكد والدأب والإنصباب على العمل والتكليف .

وفى المغرب تقابل هاتين الأمتين الأمة الفرنسية فى صفة الفكاهة والأمة الألمانية فى صفة الجهد والجهامة .

وهذه طائفة من أمثلة الأمة الفارسية ـ التى يقال عنها أنها فرنسا الشرق ـ نتبعها بطائفة من أمثلة الأمة اليابانية بغير اختيار بين صفحات الكتب الجامعة لأمثال هاتين الأمتين .

أمثال فارسية

الصدق والسكر زميلان

الحب والعطر لايختبئان

الخادم الجديد أسبق من الغزال

ليس القلب مائدة تبسط لكل ضيف

الذهب والحجر من معدن واحد فى الصندوق

الحائط عريان والإسكاف حاف

الجاهل لاتقع فيه ، لا هو إنسان ولا هو حمار

يبيع الجلد قبل صيد الغزال

من دواعى الرثاء أن تنفق الذهب فى الطلاء

لا لزوم للسمك فى بركة بلا ماء

انكلام يلد الماء والأمطار تلد الثلوج

ما الفائدة ؟ عندما أستطيع لا أعرف وعندما أعرف لا أستطيع !

* * *

وهذه متفرقات بعددها ـ اثنا عشر ـ من أمثال الأمة اليابانية فى معارض شتى من حكمة الحياة :

حب لايميز بين « الميكاد » والفلاح

قد ترى السماء من ثقب إبرة

صدر الإنسان أصون الصناديق لأسراره

نصف الناس يضحكون من النصف الآخر ، والنصفان حمقى .

إذا تقدمت الحماقة رجعت الحكمة .

أعتى العواصف لاتثير الموج فى أعمق الآبار .

ما من شجرة تحمل الأرز مطبوخا .

لا السكير يدرى بعار الخمر ولا المفيق يدرى بسلطانها .

لا يرجع الضحك بما أذهبه الغضب .

ـلعة فى تحية ازدراء

حب الغلال نبت فى حقول الآخرين

أقرض نفسك تعلم لماذا يصيح المقروض

* * *

والأمة الفرنسية أشهر أمم الغرب بالفكاهة فيما تداولته الألسنة من شهرة . وهذه متفرقات من أمثالها :

لا تذهب الفضيلة بعيدا إلا أن يكون الغرور فى ركابها

حـ ... ـرع المتملقين

... عيوب سرعان ما تنكشف براءته

... أجنحة بلا أقدام

... أحمق من أخوانهم الحدثين

البساطة المفتعلة تكلف مطلى

لايقول عن الحظ أنه أعمى إلا الذى لايراه

تزيدنا السن حمقا كلما زادتنا حكمة

أصدقاؤنا الأعزاء يقولون كما نقول

الحب مملكة المرأة

للقلب منطق لايعرفه المنطق

الذى يحسن الحساب لايثق فى حساب

* * *

وتلى هذه الأمثال الفرنسية طائفة فى مثل عددها من الأمثال الألمانية . وهذه :

سفينة وتدها من الذهب ترسو فى كل ميناء

إن لم تكن مطرقة فكن سندانا

الكيس الفارغ لايقف مستقيما

بطن فارغ أشجع من رأس ملآن

الضرير أقل عثرات من البصير

من بدأ بالألف انتهى إلى الياء

التخمة أقتل من الجوع

طريق الشحاذ لا ضلال فيه

آدم وحواء أكلا التفاحة ، ونحن نطالب بقائمة الحساب

امرأتان طيبتان فى الدنيا : إحداهما ماتت والأخرى مفقودة !

المرأة التى لايصحبها أحد يصحبها الجميع

يضحك من الندوب من لم يعرف الجراح

وهذه اثنا عشر مثلا من كل أمة مشهورة بالفكاهة أو مشهورة بالجهامة . غير أننا لو جعلناها عشرة أضعافها لما تغيرت نسبة الموازنة بينهم . ولا خرجنا منها بتفضيل حاسم لأمة على أمة حين نقتبس فكاهة الأمم من تجاربها

وأمثالها ، فكلها سواء فى مزج الجانب المضحك بالجانب الحكيم من تجارب الحياة المتكررة . ولاشك أن هذه التجارب وهذه التعبيرات عنها أدل على ملكة الفكاهة الشائعة بين بنى الإنسان من الأقوال المتفرقة على ألسنة الآحاد .

* * *

وهناك مقياس آخر للفكاهة الشائعة بين بنى الإنسان نرجع فيه إلى مواسم الفكاهة التى تعرض جميع الأمم فى حالات متماثلة ، وهى حالات التنفيس عن الحرج أو حالات التمرد والاحتجاج على البدع الشائعة . ولاسيما البدع التى حان لها أن تزول أو تبدلت دواعيها بتبدل الأحوال .

والشعوب الصقالبة فى أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى من الشعوب التى اشتهرت بجهل النكتة وخشونة الفطرة وقلة الفطنة لكل معنى فى القول غير المعنى الصريح الذى يفهم على وجه واحد ولايفهم على وجهين كما يغلب على جميع المضحكات .

إلا أن هذه الشعوب قد رويت عنها نوادر فى موسم الحرج لاتفضلها من [illegible] نوادر الشعوب الغربية فى أمثال هذه المواسم .

وهذه متفرقات من تلك النوادر مأخوذة من الصحف أو من مجاميع الفكاهة الغربية التى تصدر من حين إلى حين وتتمثل فيها أمزجة الأمم التى تروى تلك النوادر عنها على غير قصد من جامعيها :

أرادت إذاعة روسية أن تطلع الفلاحين على أجهزة الإذاعة وأن يشترك كل منهم فى إرسال الحديث إلى العالم بكلمة واحدة لايزيد عليها ، فلما تقدم المزارع الأول وسئل أن ينادى بالكلمة الوحيدة صاح بملء فيه : النجدة !

وطاف مفتش من مفتشى الدعاية بين الفلاحين المتذمرين فقال فى بعض القرى للمشتكين من قلة الطعام والكساء :

« مم تشكون ؟ أتشكون من أبدع المذاهب الاجتماعية من أجل لقمة [illegible] عساكم قائلين لو رأيتم الأفريقيين العراة الذين لايعرفون الخبز [illegible] مصبوغ فى مجاهل القارة السوداء ؟ » .

فهز أحد السامعين رأسه وقال :

« عجيب يا حضرة الرفيق أن هؤلاء سبقونا إلى أبدع المذاهب الاجتماعية » !

وسافر تاجر مجرى فى روسيا والأقاليم المجاورة لها فجعل يرسل التذاكر

البريدية إلى أصحابه كلما نزل بعاصمة من العواصم ، فكتب فى التذكرة الأولى : تحيات من موسكو الحرة ، وكتب فى التذكرة الثانية : تحيات من وارسو الحرة ، وكتب فى التذكرة الثالثة : تحيات من براغ الحرة . ثم صمت شهرا وجاءت إلى أصدقائه من باريس تذكرة يقول فيها هذه المرة : تحيات من الحر رابينوفتش !

واقترب غريب فى بودابست من جندى الشرطة ليسأله عن الساعة ، فنظر الشرطى إلى النوافذ وقال له : « إنها الساعة الثامنة وثلاثون دقيقة بالضبط » . .

فعجب الزائر الغريب وفاتحه بعجبه قائلا : « كيف عرفتها وأنت لم تنظر فى ساعتك ؟ » .

وقال الشرطى : « هذه النوافذ المغلقة فى هذه اللحظة دليل على ميعاد الإذاعة الأجنبية » !

واجتمع ثلاثة مساجين فى أحد المعسكرات فقال أولهم همسا : أنا هنا لأننى متهم بمشايعة راداك ، وقال الثانى : أنا هنا لأننى متهم بتأييد راداك ، وقال الثالث : أنا هنا لأننى راداك[1] .

وقد نقلت عن الألمان فى أيام هتلر هكايات يتداولها الشعب الألماني من قبيل التمرد والاحتجاج على شدة الحجر أو على البدع الاجتماعية ونختار حكاية من كل منها تنبىء عن سائرها .

فمن حكايات التمرد على الحجر وسوء الحال أن رجلا ضاقت به الدنيا فعول على الانتحار واشترى حبلا ليشنق نفسه فانقطع الحبل ونجا الرجل من الموت ، لأن الحبل « ارساتز » ، أو تقليد صناعى . . فاشترى سما من صيدلية وضاعف المقدار فلم يمت لأن السم « ارساتز » أى تقليد صناعى للمواد التى تصنع منها السموم . . واشترى مسدسا وأطلقه على نفسه فلم يمت لأن المسدس والرصاص كله « ارساتز » لايميت . . فلما يئس من الموت عدل عن الانتحار ، وأجمع عزيمته على البقاء واحتمال الحياة على علاتها ، وذهب إلى مطعم أكل فيه وشرب وأفرط فى أكل اللحوم وشرب الجعة تعويضاً لما فاته من متعة الحياة فى اليومين السابقين فمات فى هذه المرة ، لأن الطعام والشراب « ارساتز » !

[1] Laughter incorporated .

وشاع بين الفتيات زى الملابس القصيرة التى تكشف عن الصدور والسواعد والسيقان ، وعاد أحد الأزواج إلى بيته فى بعض تلك الأيام فاستقبلته زوجته متهللة وقالت له : أتدرى يا فلان ! إنهم يبيعون الفساتين بالتقسيط على عشرة أقساط . وقد انتهزت الفرصة واشتريت فستانا يوفر عليك سداد ثمنه الكبير دفعة واحدة .

فنظر الزوج إلى امرأته التى كادت أن تبدو أمامه بغير كساء ، وقال وهو يظهر الموافقة على مضض :

ـ أظن أن هذا هو القسط الأول من الفستان !

النوادر القرقوشية

إن الاستعداد لتأليف الفكاهة التى تنفس بها الأمم عن صدورها فى أوقات الحرج يكاد يتساوى بين جميع الأمم ومنها ـ أو فى مقدمتها ـ الأمم التى لم تشتهر بالنكتة واشتهرت على نقيض ذلك بأنها تجهلها ولاتحسنها . . .

ونقول إن هذه الأمم فى مقدمة الأمم التى تؤلف النكات فى هذا الغرض لأنها فى الغالب هى الأمم التى تبتلى بالحرج وتعز عليها حرية القول ، فلا يوجد فى العصر الحاضر نظير لهذه النوادر فى الأمم التى تملك حرية النقد وتجهر بآرائها فى حكومتها وحكامها ، ولا محل للمقارنة بين الشعوب الأوروبية فى هذا الباب من أبواب الفكاهة لأنها لاتتساوى فى ظروفه ودواعيه ، وإنما تستطاع المقارنة بين النكات المتقدمة والنكات التى شاعت فى مصر على عهد « قرقوش » ودونها « ابن مماتى » فى كتابه المسمى « الفاشوش فى حكم قراقوش » وليست كلها من تأليفه وابتكاره ، بل هى مما يشيع مجهول المصدر ثم يقاس عليه ويظل فى طى الكتمان إلى حين . .

وإحدى هذه النوادر أو النكات قد سبق لها نظير فى النوادر التى استشهد بها فرويد وهى نادرة الحداد المحكوم عليه بالموت .

قيل إن غلاما لقره قوش قتل نفسا فحكم عليه بالشنق ، ثم تشفع لديه الشفعاء وقالوا له : إنه حدادك ينعل لك الفرس ويخدمك ، فإن شنقته لم تجد غيره ، فنظر قره قوش ناحية الباب ووقعت عينه على رجل قفاص فقال : هذا القفاص لا حاجة بنا إليه ، فاشنقوه فى مكان الراكبدار ، وهى وظيفة الغلام الحداد عنده !

وعلى هذا المثال تجرى النوادر « القرقوشية » التى أثبتها « ابن مماتى » فى كتابه أو تناقلها الرواة على لسان غيره .

* ومنها نادرة الرجل الذى أوثقه الناس وحملوه حيا ليدفنوه وهو يصيح فى النعش مستغيثا بقره قوش ، فلما سمعه قره قوش ترك المشيعين يمضون به وقال له : ويحك ! لا أصدقك وأكذب مائة من ورائك !

* وقيل إن قره قوش نشر قميصه فوقع القميص من الحبل ، فتصدق بألف درهم وقال : لو كنت ألبسه ساعة وقوعه لانكسرت .

* وقيل إن جنديا نزل فى مركب ، وكان به فلاح وزوجته وهى حامل فى سبعة أشهر . فصدمها الجندى وأسقط حملها فأخذ زوجها بتلابيبه وقاده إلى قره قوش ، فقضى على الجندى أن يأخذ الزوجة ويطعمها ويكسوها ولايعيدها إلى زوجها إلا وهى حامل فى سبعة أشهر ! . .

* وشكا إليه مدين أنه يجمع دينه ويذهب به إلى صاحب الدين فلا يجده ، ثم يأتى هذا فيطالبه ويلح عليه وهو خالى الوفاض لايملك السداد ، فأمر قره قوش بحبس صاحب الدين حتى يعرف المدين موضعه متى جمع المال المطلوب منه ، ولايضيع الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل . .

* وكان لقره قوش باز يصيد به فطار الباز ولم يعد إليه ، فأمر باغلاق أبواب المدينة ليرجع الباز إليه إذا أغلقت جميع الأبواب !

* وشكا إليه الفلاحون بردا أصاب القطن وأتلفه والتمسوا منه أن يعفيهم من الضريبة ذلك العام ، فأبى أن يعفيهم لأن القطن إنما أصيب بالبرد لإهمالهم وقلة درايتهم ، ولو زرعوا معه صوفا لما أصابه التلف من برد الشتاء !

* * *

ومن باب هذه الحكايات عن قره قوش حكايات كثيرة يتناقلها المصريون عن الحكم التركى فى عصر المماليك وبعد عصرهم إلى أيام الخديوى إسماعيل . .

ومنها أن حاكما تعود أن يقترض مالا من بعض الصيارفة ويكتب له وثيقة بها ثم يأمره بابتلاعها إذا جاءه فى الموعد مطالبا بحقه . ولايزال يقترض ويأبى السداد على هذا النحو ويضيف الدين الجديد إلى الديون القديمة حتى يئس الصيرفى من سداد جميع الديون ، فلما استدعى الصيرفى بعد ذلك جاءه ومعه ورقة شفافة ورجاه أن يكتب له الوثيقة عليها . . ليسهل عليه ابتلاعها فى موعد السداد .

* ومنها أن والياً كان يجمع الضرائب ولايقبل عذرا فى تأخيرها .. ولايزال يقول لمن يعتذر بقلة المال :

- ماذا ؟ أليس لديك أربعون ريالا .. ؟

وعلم القوم من تكرار هذه « الأربعين » أن الرجل يملك أربعين ريالا فلا يصدق أن أحدا لايملكها مثله ، ونقبوا دفائنه حتى عثروا بالثروة المجهولة ، أو المعلومة ، فلم يضرب الوالى بعدها أحدا يماطل فى الضريبة ، وجعل يقول لكل معتذر :

- من أين لك أربعون ريالا يا مسكين ؟ .. أنا لا أملك ريالا واحدا من الأربعين ..

ومنها أن واليا كان يصلى فى أخريات أيامه ويتبع الصلاة بالدعاء والنحيب ويسأل الله أن يكفر له ذنوبه لأنه قتل أربعة .

وسمعه زميل له فأدهشه أن يستعظم هذا الذنب اليسير وينحب هذا النحيب من أجل أربعة قتلهم وهم فى حسابه عدد غير كبير ، فقال له كأنه يؤنبه :

- ألم تقتل فى حياتك غير أربعة يا أغا ؟

قال : « لا يا صاحبى .. أربعة من الترك ، أما الفلاحون فلا عداد لهم فيما أذكر » !

وأشباه النوادر لو أحصيت لاجتمع منها مجلدات تربو على العشرات من أمثال كتاب الفاشوش عن حكم قره قوش ، وهى جميعا من تأليف أمة مشهورة من قديم الزمن « بالقفش » والنكتة السريعة ، فإذا قوبلت هذه النوادر بنوادر الأمم التى لم تشتهر بالفكاهة فى أوروبا الحديثة ظهر من المقابلة أن الاستعداد متقارب أو متساو بين جميع الأمم ، وإنما تزيد النكتة المصرية بطابع خاص بها وهو الجمع بين التنفيس عن الحرج وبين وصف الحاكمين بالغفلة والبلاهة ، وسبب هذا الفارق أيضا راجع إلى الظروف الاجتماعية لا إلى طبيعة الضحك فى النفس الإنسانية ، فإن الحاكم الذى تصيبه النكتة المصرية من غير أهل البلد فلا ضير من اتهامه بالغفلة والبلاهة واعتزاز المحكومين على الحاكمين بالفطنة والدراية ، ولكن هذا الاعتزاز فى أوروبا

الحديثة يصيب المحكومين كما يصيب الحاكمين لأنهم من عنصر واحد ، فلا حاجة فى النكتة هنا إلى أكثر من التنفيس عن الحرج وتمثيل الحجر على الألسنة والأقلام .

فكاهات عهود التحول

وأتم من هذه المواسم الفكاهية التى تنفس بها الأمم عن صدورها فكاهة أخرى أعم وأبقى أثرا لأنها تشمل العهود المتحولة فى حضارة واسعة تحيط بأمم كثيرة ، وتأتى هذه الفكاهة فى أوانها حين تؤذن العهود بالتحول لتزعزع أركانها وزوال مقوماتها ، فينبرى لها نابغ ملهم فى فن النقد الفكاهى يجسمها فى « شخصية » مخترعة يجعلها هدفا للسخرية والتسخيف أو يعمد إلى شخصية خيالية قائمة يلبسها ذلك الثوب ويودعها بقايا النفاق والتكلف والتقاليد الخاوية التى تتخلف بعد أجيال عدة فى أعقاب العهود الدائلة التى آذنت شمسها بالأفول .

من هذه العهود المتحولة عهد الفتك وإشباع البطون والشهوات فى القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد تصدى له الأديب الفرنسى رابليه Rabelais (١٤٩٤ - ١٥٥٣) فمثل ملوكه وأبطاله فى شخصيتين خالدتين إحداهما شخصية جارجنتوا Gargabntua الذى يلتهم الآدميين والأنعام نهما ولايشبع ولا يكف عن الطعام ، والأخرى شخصية بكروشول Picrochole الذى ضربت نفسه بالعدوان وهانت عليه النفس البشرية يزهقها لقليل من المال أو لنزوة من نزوات الساعة أو لغير شىء غير العتو والطغيان .

وليس أدل من اصطحاب هذه المساوىء فى العهود الدائلة من آيات القرآن الكريم فى سورة الفجر حيث تنعى دول التبابعة والفراعنة والجبابرة جميعا فى أمثال هذه العهود :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد » إلى قوله تعالى : « بل لاتكرمون اليتيم ولاتحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما » .

وهذه المفاسد التى جمعتها هذه الآيات هى بعينها مفاسد العهد الذى يمثله جارجنتوا فى النهم ويمثله بكروشول فى الفتك والعدوان . وكلاهما بعد ذلك باغ نهم على زيادة البغى فى أحدهما وزيادة النهم فى الآخر .

* * *

ومن العهود المتحولة عهد الفروسية فى القرن السادس عشر بين نبلاء الأسبان على الخصوص ، فإن هذا العهد قد شاخ وشاه حتى بطلت فيه النخوة والحماسة فأصبحت أكذوبة خاوية يتعلق المخدوعون بظواهرها أو الجامدون على بقايا . وقد تصدى لهذا العهد كاتب أسبانى من طراز رابليه هو سرفانتيز Cervants صاحب كتاب دون كيشوت الذى تضمن من أمثال العرب وكلماتهم المأثورة ما يكاد يسلكه فى عداد الكتب العربية ، ولم يكن ذلك عبثا أو لغواه بل كان من تمام التعبير عن العهد الآفل لأنه وافق شيوع التقاليد العربية بين الأسبان وأمم القارة الغربية .

ويعاصر هذه العهود أو يسبقها بقليل عهد الألاعيب « الشريرة » الذى فشا بين الولايات الألمانية على أيام النبلاء الذين قيل فيهم أنهم نصف أمراء ونصف قطاع طريق . وتمثلت ألاعيب هذا العهد فى شخصية القروى أولنسبيجل Eulenpicgel كان كالمسخ المشوه فى تصوره لأولئك العابثين المحتالين الأشرار ، ويقال إنه عاش فى برونزويك وأن توماس مونر Murner (١٤٧٥ - ١٥٣٠) الذى جمع نوادره بعد ذيوعها نحو قرن من الزمان ، ولم تثبت نسبة الكتاب إليه ولكن ثبت ذيوع النوادر قبل ذلك بغير خلاف .

ثم جاء الكاتب البلجيكى شارل دى كوستيه Charles de Coster .

(١٨٢٧ - ١٨٧٩) فاستعار هذه الشخصية وأودعها روحا فلمنكية مرحة كادت أن تجعلها نموذجا للطبيعة الفلمنكية فى سذاجتها التى آذنت بالتحول عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

وخاتمة المطاف فى هذه المواسم الفكاهية كتاب «أعاجيب البارون منشهاوزن» الذى ألفه الكاتب الألمانى رودلف أريك راسب Raspe وأدار حوادثه أو نوادره على شخصية واقعية عاش صاحبها فى القرن السابع عشر وعاد بعد خدمته فى الجيش الروسى يصدع الأسماع بأخبار البطولة التى يرويها عن نفسه وخوارق الشجاعة والدهاء التى امتاز بها فى وقائع الحرب والسفارة بين الملوك والأمراء ، ومنهم أمراء المشرق فى الآستانة والقاهرة .

تلك الشخصية الواقعية كارل فردريك منشهاوزن (١٧٢٠ - ١٧٩٧) نموذج المفاخر المدعاة بين عصر السيف وعصر البندقية ، يدعى بضربة على عينه أطارت منها الشرر فانطلق الرصاص ... وإحدى هذه الأعاجيب أنه أراد الخروج من القلعة المحصورة فركب القذيفة التى قذفت عليها فعادت به أدراجها إلى حيث أراد ، وكانت أعاجيب منشهاوزن هذا خاتمة العهد الذى راجت فيه أباطيل البطولة بعد عصر الفروسية وقبل عصر السلاح الحديث ، وراجت فيه على الجملة أخبار السياحات والرحلات مما يصدقه العقل أو لايقبل التصديق .

وهذه فكاهات ظهرت لمناسبات متشابهة بين فرنسا وأسبانيا وألمانيا وبلجيكا وتقبلتها الأمم من المغربيين والمشرقيين حيث تداولتها أيدى القراء بمختلف اللغات ، ومن هذه الأمم من اشتهرت بالفكاهة ومنها من اشتهرت بجهلها وبطء الالتفات إليها ، ولايسع الناقد عند المفاضلة أن يرجح النكتة فى إحداهما على النكتة فى سواها ، فربما كان بعض النكات فى أعاجيب منشهاوزن أبرع من نكات دون كيشوت ، وربما كانت النكتة الأسبانية أحيانا أبرع من النكتة الألمانية ، وعامتها من نسق واحد وصبغة واحدة تؤدى رسالتها فى مناسباتها وتسجل الحقيقة التى أسفرت عنها المقابلة بين الفكاهات القومية ودلت على أن الضحك - كالمنطق - مزية إنسانية توجد بالقوة كما توجد بالفعل حيث يوجد الإنسان ، وأن اختلافها إنما هو اختلاف بين الظروف والبيئات قبل أن يكون اختلافا بين الطبائع والأصول على أن طبائع الإنسان العامة لاتمحو الفوارق بين المجتمعات فى مواقعها المتباينة ، ولاتمحو الفوارق بين المجتمع الواحد فى الأزمنة المختلفة والأحوال المتناقضة ، وليس من الطبيعى أن تكون الأمة الوادعة كالأمة المكافحة أو الأمة الغنية كالأمة الفقيرة ، أو الأمة التى طال عهدها بالحضارة ومؤسساتها كالأمة التى تحضرت بعد وحشة أو مرت بها الحضارة ناشئة متقطعة ، ولا تتشابه فى الجد ولا الفكاهة أمة تمرست بالمظالم والشدائد وأمة لم تتمرس بها إلا عرضا فى الآونة بعد الأخرى .

فمهما تتفق طبائع الإنسان فستبقى بعد ذلك بقية للصبغة فى الجد والفكاهة ، وفى العلم والعمل ، وفى التفكير والذوق ، وفى الضرورات والكماليات .

فوارق الأمم فى الفكاهة

ونحن فى هذه الرسالة نجمل القول فى أصول الفكاهة لنستطرد منها إلى فكاهة جحا أو الفكاهة المنسوبة إليه فى الأمم التى عرفته وتمثلت بحكاياته ، وهى الأمة العربية والأمة الفارسية ، والأمة التركية . وكادت هذه الأمة - أى الأمة التركية - أن تستأثر به فى معظم نوادره حتى قيل أن جحا المشهور اليوم إنما هو جحا جديد من مخلوقات البديهة التركية تنقطع الصلة بينه وبين جحا القديم الذى عرفه العرب فى أمثالهم ورجع به التاريخ إلى صدر الإسلام ، فلا يجمع بينهما غير التسمية باسم واحد .

وأيا كان منشأه من الأمة التركية فهناك « جحا » تنسب إليه الحكايات فى اللغة العربية واللغة الفارسية ، فإذا عنينا بفوارق الأمم فى الفكاهة والمضحكات فليس من غرضنا فى هذه الرسالة أن نستقصى الفوارق فى جميع الأمم ولا حاجة بنا إلى أكثر من تمييز الفوارق فى خصائص الفكاهة بين السليقة العربية والسليقة الفارسية والسليقة التركية ، فربما أعانت هذه الفوارق على إسناد الحكايات إلى كل أمة من هذه الأمم حسب سليقتها الغالبة عليها ، ولايكون هذا الإسناد بعد كل محاولة فى ميسورنا الآن إلا على سبيل الترجيح والتقريب دون الجزم والتوكيد . ونحن فى هذا كمن يقول إن فلانا عربى لأنه أسمر فيقول شيئا يستحق أن يقال لأنه لايستحق أن يهمل ، ثم لايجاوز هذا الحد إلى توكيد النسبة مع احتمال وجود البشرة السمراء أو المسمرة بين الشعوب الشقراء ، واحتمال وجود البشرة البيضاء بين العرب وغيرهم من الشعوب السمراء .

وعلى هذا النهج من التغليب والترجيح نستطيع أن نميز سليقة الأمة فى عامة شؤونها ثم غير السليقة التى تنتظر منها فى معارض الفكاهة ، لأن الصورة الفكاهية نسخة من الصورة المحسوسة مبالغ فيها على مثال المبالغة فى هذا الضرب من التصوير المشهور فى اللغات الأوروبية باسم الكاريكاتور . . . . وقد وجد هذا الكاريكاتور بالتعبير اللغوى فى جميع الأمم قبل أن توجد بالخطوط والرسوم .

فمن الوصف الصادق لسليقة الأمة العربية أن نقول أنها أمة شعرية منطقية ، ومن الوصف الصادق لسليقة الأمة الفارسية أن نقول أنها أمة صوفية دبلوماسية . ومن الوصف الصادق لسليقة الأمة التركية أن نقول أنها أمة عملية واقعية . . .

وإلى أين تنتهى المبالغة « الكاريكاتورية » بالخيال والمنطق ؟

تنتهى إلى الوهم والقياس مع الفارق أو مع الفوارق الكثيرة .

أما المبالغة الكاريكاتورية فى السليقة الصوفية فقد تنتهى إلى المحال والمحاولة ، وأما هذه المبالغة فى السليقة العملية الواقعية فقد تنتهى إلى تحصيل الحاصل والحذلقة بما هو مفهوم مستغن عن التعريف .

وقد أعطانا الشاعر التركى المستعرب - ابن سودون اليشبغاوى من أدباء القرن التاسع بمصر والشام - مثلا للسليقة التركية لا نظير له فيما نعلم من نظم شعراء العرب والترك ولا شعراء الأمم الغربية ، لأن أولئك الشعراء يعطوننا المثل فنأخذه من طريق التحليل والاستنتاج ، ولكن ابن سودون يعطينا المثل على غير قصد منه بمنظوماته التى تعدو تحصيل الحاصل ويرسم لنا « الكاريكاتور » بيده والأبدع لنا أن نرسمه ونستوحى ملامحه من خلال الألفاظ ومعانيها .

ونكتفى هنا بقصيدتين من شعره الذى أراد به الإضحاك بمحاكاة أدعياء المعرفة الذين لايزيدون فى حكمتهم على تعريف المعروف .

واحدى القصيدتين على قافية الألف المقصورة وهى :

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما
تيقن أن الأرض من فوقها السما

وأن السما من تحتها الأرض لم تزل
وبينهما أشياء إن ظهرت ترى

وإنى سأبدى بعض ما قد علمته
لتعلم أنى من ذوى العلم والحجى

فمن ذاك أن الناس من نسل آدم
ومنهم أبو سودون أيضا ، وابنه مضى

وإن أبى زوج لأمى ، وأننى
أنا ابنهما والناس هم يعرفون ذا

وكم عجب عندى بمصر وغيرها
فمصر بها نيل على الطين قد جرى

وفى نيلها من نام بالليل بله
وليست تبل الشمس من نام بالضحى
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائما
بها الظهر قبل العصر : قبل بلا مرا
وبالشام أقوام إذا ما رأيتهم
ترى ظهر كل منهم وهو من ورا
بها البدر حال الغيم يخفى ضياؤه
بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
ويسخن فيها الماء فى الصيف دائما
ويبرد فيها الماء فى زمن الشتا
وفى الصين صينى إذا ما طرقته
يطن كصينى طرقت سوا سوا
بها يضحك الإنسان أوقات فرحه
ويبكى زمان الحزن فيها إذا ابتلى
وفيها رجال هم خلاف نسائهم
لأنهم تبدو بأوجههم لحى

والقصيدة الأخرى البائية التى يقول فيها : ...

عجب عجب عجب عجب
بقر تمشى ولها ذنب
ولها فى بزبزها لبن
يبدو للناس إذا حلبوا
لا تغضب يوما إن شتمت
والناس إذا شتموا غضبوا
من أعجب ما فى مصر يرى
الكرم يرى فيه رطب
أوسيم بها البرسيم كذا
فى الجيزة قد زرع القصب

زهر الكتان مع البلسا
ن هما لونان ولا كذب
كيهود فى دير خلطوا
بنصارى حركهم طرب
وقناطر أم الخمس بها
ماء فى الجفرة ينسرب
والمركب مع ما قد وسقت
فى البحر بطرف تنسحب
والخيمة قال الناس إذا
نصبت فالحبل لها طنب
البيض إذا جاعوا أكلوا
والسمر إذا عطشوا شربوا
الناقة لا منقار لها
والوزة ليس لها قتب
الوز يبيض بشقنبته
وينام عليه فينشقب
والوز الفقس بأرض بلقس
كذا فى المقس له زغب
لابد لهذا من سبب
خزر . فزر . ما السبب ؟

* * *

وستمر بنا فيما يلى ألوان من النوادر المنسوبة إلى جحا يحسب بعضها من نوادر تحصيل الحاصل ، ويحسب بعضها من نوادر الوهم أو القياس مع الفارق . وبعضها من نوادر المحال والمغالطة . ويساعدنا هذا التقسيم على الرجوع بها إلى مصادرها مع التحفظ والتماس القرائن الأخرى من التاريخ والمناسبات والشواهد النفسية أو الاجتماعية .

ونبدأ قبل البدء بعرض النوادر وتقسيمها فنقول إنه تقريب لا نرجو أن نبلغ به مبلغ الجزم والتوكيد ، ولكننا لا نرى من أمانة البحث أن يهمل أو يصرف عنه النظر ، فلعله بعد كل ما يقال عن أحكامه « التقريبية » أصدق الموازين الميسرة لنا فى هذا المبحث وما جرى مجراه من الروايات المشاعة بلا إسناد تبلغ مبلغ الحزم والتوكيد .

جحا .. ونوادره

جحا .. غير واحد

شىء واحد ثابت كل الثبوت فى أمر جحا

ذلك الشىء الثابت - قطعا - أنه لم يكن جحا واحدا ولايمكن أن يكونه . لأن النوادر التى تنسب إلى جحا لا تصدر من شخص واحد ، ولاتزال دواعى اليقين باستحالة هذه النسبة واضحة فى كل قرينة وكل رواية يجوز الاعتماد عليها فى تحرى الوقائع ومن تنسب إليه .

يستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخص واحد لأن بعضها يتحدث عن أناس فى صدر الإسلام ، وبعضها يتحدث عن أناس فى عصر المنصور العباسى أو عصر تيمور لنك أو ما بعده من عصور بأجيال .

ويستحيل أن تصدر عن شخص واحد لاختلاف الشخصيات التى تصورها فى مجموعها ، فمنها ما يكون التغفيل فيه من جحا ، ومنها ما يكون فيه جحا صاحب الذكاء النادر والطبع الساخر الذى يكشف عن الغفلة ويتندر على البلاهة ، ومن هذه الشخصيات من تتمثل فيه الحماقة بغير مراء ، ومنها من يتحامق ويبدو فى كلامه وتشبيه أنه يتكلف ما يعمل وما يقول استهزاء منه بمن يدعون الحكمة والذكاء .

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخصية واحدة لتباعد البيئات التى تروى عنها سواء فى الأمكنة أو العادات والأخلاق ، فقد يروى بعضها عن فارس ويروى بعضها عن بغداد أو الحجاز أو آسيا الصغرى أو غيرها من البلدان الشرقية .

بل ربما قيل عن جحا أنه نصر الدين التركى وقيل عنه أنه أبو الغصن العربى الفزارى ، وقيل عنه أنه من النوكى الهاكعين كما يقال عنه أنه من أصحاب الحالات والكرامات من المتسترين بالولاية وهم يجهرون بالهذر والبلاهة ..

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن « جحا » وحده كائنا ما كان . لأنها تنسب - بعينها - إلى المجانين من أمثال هبنقة وبهلول أو إلى الأذكياء من أمثال أبى نواس وأبى العيناء .

ويزداد على هذه الاحالات جميعا أن طبيعة الفكاهة تختلف بين تحصيل الحاصل والقياس مع الفارق والمحاولة والمحال ، مما يجوز أن يتفق عرضا فى نادرة أو قليل من النوادر ، ولكنه لايتفق فى العشرات والمئات .

ونحن قد نقرأ عن جحا فى كتاب واحد فنفهم أنه شخص موجود أو قابل للوجود ، لأنه متنافس الأخبار مطبوع فى تفكيره وتعبيره على غرار واحد ، ثم نقرأ عنه فى كتاب آخر فنرى صاحب الكتاب مضطرا إلى تسويغ نوادره المتناقضة باسنادها إلى المختلقين والمنتحلين ، أو بافتراء المفترين على « جحا » للنكاية والتشهير .

يقول الميدانى صاحب كتاب الأمثال : « هو رجل من فزارة كان يكنى أبا الغصن ، ومن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمى مر به وهو يحفر بظهر الكوفة موضعا فقال له : مالك يا أبا الغصن ؟ قال : أنى قد دفنت بهذه الصحراء دراهم ولست اهتدى إلى مكانها . فقال عيسى : كان ينبغى أن تجعل عليها علامة . قال : قد فعلت : ماذا ؟ قال : سحابة فى السماء كانت تظللها ولست أرى العلامة . . .

« ومن حمقه أيضا أنه خرج من منزله يوما بغلس فعثر فى دهليز منزله بقتيل فضجر به وجره إلى بئر منزله فألقاه فيها . غير أن أباه أخرجه وغيبه وخنق كبشا حتى قتله وألقاه فى البئر . ثم أن أهل القتيل طافوا فى سكة الكوفة يبحثون عنه فتلقاهم جحا فقال : فى دارنا رجل مقتول ، فانظروا أهو صاحبكم ؟ فعدلوا إلى منزله وأنزلوه فى البئر ، فلما رأى الكبش ناداهم وقال : يا هؤلاء ! هل كان لصاحبك قرن ؟ فضحكوا ومروا .

« ومن حمقه أن أبا مسلم صاحب الدولة لما ورد الكوفة قال لمن حوله : أيكم يعرف جحا فيدعوه إلى . فقال يقطين : أنا . . . ودعاه ، فلما دخل لم يكن فى المجلس غير أبى مسلم ويقطين ، فقال : يا يقطين ! أيكما أبو مسلم ؟ » .

ثم يقول الميدانى بعد ذلك : « وجحا اسم لاينصرف لأنه معدول عن جاح مثل عمر من عامر . يقال جحا يجحو جحوا إذا رمى ، ويقال : حيا الله جحولك أى وجهك » .

* * *

وجحا هنا ، كما وصفه الميدانى ، شخصية مفهومة متناسقة ، لعل الخبر الذى جاء عن أبيه فى خلال الكلام عنه يفسر بالوراثة ما فيه من خلة الحماقة .

لأن جحا لم يصنع شيئا يزيد الشبهة فى أمر القتيل بنقله من الدهليز إلى البئر . وأباه لم يصنع شيئا يزيل الشبهة بوضع الكبش فى مكانه ، وكان لكل منهما مندوحة عما صنع لولا الحماقة فى الأب وفتاه .

أو لعل الخبر عن اشتهار اسم جحا حتى سمع به أبو مسلم يفسر لنا وضع الروايات عنه بين الفرس أو اعتباره بينهم علما على البلاهة والفهاهة يسندون إليه ما شابه نوادره من الفكاهات الفارسية ، فليس فى خبر جحا هنا غرابة بما نسب إليه أو نسب إلى غيره ، ولك أن تقبل هذا الخبر دون أن تحتاج بعد إلى توفيق أو تأويل .

ولكنك تقرأ عن جحا فى غير كتاب الأمثال فلا ترى كتابا واحدا يستغنى عن شىء من التوفيق والتأويل ، لغرابة الأخبار التى ترامت عنه وتلقفها الرواة فحاروا كيف يضعونها فى موضعها بين أخبارهم ومن تروى عنهم تلك الأخبار .

ومن الإطالة على غير طائل فى غرضنا من هذه الرسالة أن نحيط بكل ما وصف به جحا فى كتب الأدب العربى فإن المحصل منه كله أن تناقض لايستقر على قرار ، ولكننا نجتزىء بما كتبه ابن الجوزى إذ يقول فى أخبار الحمقى والمغفلين : إنه - أى جحا - « روى عنه ما يدل على فطنة وذكاء ، إلا أن الغالب عليه غفل ، وقد قيل إن بعض من كان يعاديه وضع له حكايات . وعن مكى ابن إبراهيم : رأيت جحا رجلا كيسا ظريفا ، وهذا الذى يقال عنه مكذوب عليه ، أن له جيران يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه » .

وهكذا يسمع عن الرجل ما يدل على ذكاء وما يدل على تغفيل ويوفقون بين الذكاء والتغفيل فيحسبون أن نوادر التغفيل من وضع المفترين عليه : وغير ابن الجوزى أناس يحسبون أنه من أصحاب الحالات والكرامات يتكلم ولاينبغى أن يؤخذ عليه كلامه بظاهره لأنه يتعمد فيه إخفاء الأسرار الإلهية بهذه المضحكات والخزعبلات ، وقد حسبه بعضهم من التابعين رواة الحديث ثم شكوا فى حقيقة اسمه كما شكوا فى حقيقة مسماه .

وأما بعد ظهور جحا التركى ، الملقب بخوجة نصر الدين ، فالحكايات عنه تنسب إلى رجل واحد وهى مما يمكن أن ينسب إلى عشرة متباعدين فى الزمان والمكان والعقل والمزاج ، وبعض هذه الحكايات متأخر إلى ما بعد اختراع الساعات التى تحمل فى الجيب وبعضها متقدم إلى أيام الصحابة والتابعين .

وما لا ريب فيه - قطعا - أن رجلا واحدا لايمكن أن تصدر عنه جميع هذه الحكايات ولو كانت متناسقة متساوقة تدل على عقل واحد ومزاج واحد وتتحدث عن فترة واحدة وبيئة واحدة . فإننا إذا فرضنا وجود هذا الرجل وجب ألا يكون له عمل إلا أن يأتى بتلك النوادر والأضاحيك ووجب ألا يكون لعشرائه وأصحابه عمل غير النقل عنه وإثبات هذه الأحاديث المنقولة ، وهو ما لم يحدث فى حياة الهداة الأعلام الذين تنقل عنهم الإشارات فضلا عن الكلمات .

فالعجب أن تكون حكايات جحا من رجل واحد ، ولكنه لاعجب على الإطلاق فى توارد هذه الحكايات وتلاقيها من أبعد المصادر ، ومهما يخطر على بالنا من غرابة فالواقع يزيل كل غرابة فيه ويرينا أن هذا الفيض من الحكايات - وما هو أغرب منه - يتلاقى من أقاصى أوروبا إلى أقاصى أفريقيا إلى أقاصى القارة الآسيوية على امتدادها .

ومثال ذلك قصة تروى عن جحا وعن أبى نواس وعن رابليه الفرنسى الذى تقدمت الإشارة إليه ، وفحواها أن تاجرا بخيلا رأى طارقا فقيرا يتبلغ بالخبز القفار على رائحة شوائه أو طبيخه فطالبه بثمن هذه الرائحة ، وحار الفقير فى أمره حتى أنقذه حلال المشكلات بحل من نبيل دعواه ، لأنه رن أمامه قطعا من الدراهم وقال له خذ رنين هذه الدراهم ثمنا لرائحة شوائك ! . . .

ومن الذى روى هذه النادرة عن أبى نواس ؟

لم يروها كتاب بغداد أو دمشق أو القاهرة ، بل رواها الكاتب الإنجليزى إنجرام ingram فى كتابه عن أبى نواس وأساطيره كما سمعها باللغة السواحلية واللغة العربية فى أفريقيا الشرقية ، وهذه ترجمة القصة كما نقلناها فى كتابنا عن أبى نواس ، قال إنجرام ما ترجمته بحرفه على وجه التقريب :

« إن تاجرا ذبح معزة ومر به مسكين فجلس إلى جانب القدر لعله يستسيغ الخبز القفار باستنشاق رائحتها ، ثم لقى التاجر فقال له : إنك أيها السيد قد أحسنت إلىَّ أمس إذ منحتنى رائحة معزتك فاصطنعت بها هنيئا . فأخذ التاجر بتلابيبه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة من لحمها ، فقد اختلستها أنت إذن ولا ندرى . وساقه إلى هارون الرشيد - وقد كان شديد المحاباة للتجار - فحكم على المسكين بتغريمه اثنتى عشرة روبية يأخذها التاجر

ثمنا لنكهة ذبيحته ، وخرج المسكين يبكى لأنه لايملك فلسا من هذه الغرامة ، فوجد أبا نواس فى الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ، ووعده أن يساعده ، ثم أعطاه اثنتى عشرة روبية وأوصاه أن يغدو بها إلى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان الغد فجاءه إلى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه ورنها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعت رنينها ؟ قال : نعم . ومد يده إلى الدراهم يريد أن يقبضها ، فرده أبو نواس وصاح به : حسبك ، لقد وصل إليك الثمن رنينا برائحة ، فإذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حرى أن تملأ يدك من رنين دراهمه ، وترك الروبيات للمسكين ، وانصرف إلى داره » .

هذه نادرة تروى فى سواحل أفريقيا الشرقية ، ويتحدثون فيه بالروبيات وهم يذكرون نقود بغداد ، وهذه النادرة بشىء من التصرف فيها تروى فى قصص جحا وتروى فى قصص رابليه .

ومن النوادر ما يتوارد فى خرافات ايسوب وحكايات ألف ليلة ، كحكاية الحمار والثور مع صاحب الزرع ، وقد جاءت فى أوائل ألف ليلة بالعبارة الآتية :

« اعلمى يا ابنتى أنه كان لبعض التجار أموال ومواش وكان له زوجة وأولاد وكان الله تعالى أعطاه معرفة الحيوانات والطير وكان مسكن ذلك التاجر الأرياف وكان عنده فى داره حمار وثور فأتى يوما الثور إلى مكان الحمار فوجده مكنوسا مرشوشا وفى معلفه شعير مغربل وهو راقد مستريح ، وفى بعض الأوقات يركبه صاحبه لحاجة تعرض له ويرجع على حاله ، فلما كان فى بعض الأيام سمع التاجر الثور وهو يقول للحمار هنيئا لك ذلك : أنا تعبان وأنت مستريح تأكل الشعير مغربلا ويخدمونك وفى بعض الأوقات يركبك صاحبك ويرجع وأنا دائما للحرث والطحن ، فقال له الحمار : إذا خرجت إلى الغيط ووضعوا على رقبتك الناف فارقد ولا تقم ولو ضربوك وامتنع عن الأكل والشرب يوما أو يومين أو ثلاثة فإنك تستريح من التعب والجهد . وكان التاجر يسمع كلامهما فلما جاء السواق إلى الثور بعلفه أكل منه شيئا يسيرا فأصبح السواق يأخذ الثور إلى الحرث فوجده ضعيفا فقال له التاجر : خذ الحمار وحرثه مكانه اليوم ، فلما رجع آخر النهار شكره الثور على تفضلاته حيث أراحه من التعب ذلك اليوم فلم يرد عليه الحمار جوابا وندم أشد الندامة ، فلما كان ثانى يوم جاء المزارع وأخذ الحمار وحرثه إلى آخر النهار . فلم يرجع الحمار إلا مسلوخ الرقبة شديد

الضعف . فتأمله الثور وشكره وحمده ، فقال الحمار : أعلم أنى لك ناصح . وقد سمعت صاحبنا يقول : إن لم يقم الثور من موضعه فاعطوه للجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعا وأنا خائف عليك ونصحتك والسلام . فلما سمع الثور كلام الحمار شكره وقال : فى غد أسرح معهم . ثم إن الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه . فلما جاء النهار خرج التاجر وزوجته إلى دار البقر وجلسا ، فجاء السواق وأخذ الثور وخرج ، فلما رأى الثور صاحبه حرك ذنبه . . وبرطع فضحك التاجر حتى استلقى على قفاه » .

هذه القصة جاءت متصلة بغيرها فى ألف ليلة وليلة لمناسبة تجر وراءها مناسبة أخرى على الأسلوب المطرد فى تسلسل الروايات بألف ليلة وليلة ، ولكنها جاءت فى خرافات أيسوب منفردة ، على اختلاف المغزى ، بالعبارة التالية :

« كانت معزة وحمار فى حوزة صاحب واحد ، وكانت المعزة تغار من الحمار لأنه كان وافر الطعام يكفيه ويفيض منه ، فقالت له : إن حياتك نصب دائم ، تدير الطاحون وتحمل الأثقال ، فأنصح لك بأن تجمح يوما وتسقط فى حفرة تستريح بعدها ، فعمل الحمار بنصيحة المعزة وأصيبت رجله إصابة بالغة من جراء سقطته ، وأرسل صاحبه فى طلب البيطار ليسأله رأيه ، فوصف البيطار للحمار مرقا من طحال معزة وقال إنه دواء صالح لعلاج دائه . فذبحوا المعزة لمداواة الحمار .

«والمغزى من هذه الحكاية أن من نصب فخا لغيره جر البلاء على نفسه»
وفى خرافات ايسوب نوادر أخرى يقل فيها التحوير ويتقارب فيها المغزى ، مما تناقله المشارقة عن جحا وأمثاله ، ومنها ما لم يرد فى الخرافات القديمة كأنه أضيف إليها بعد عصر ايسوب أو بعد العصر المفروض له ولخرافاته ، ومنها ما هو قديم منقول عن الحكمة الموضوعية على ألسنة الحيوان ، وهى شائعة فى الشرق من الصين والهند إلى البلاد العربية على اتساعها وتباعد أقطارها .

ولا نرانا فى حاجة إلى انتظار عصر المطبعة أو عصر التأليف وتداول الكتب بين الأمم لتعليل هذه التوارد بين النوادر والحكايات فى المشرق والمغرب ، وبين القارات الثلاث من العراق إلى الأندلس وفرنسا إلى أفريقيا الشرقية . فإن انتقال هذه النوادر على طرق الرحلات والقوافل أسبق جدا من كل تأليف أو طباعة . وقد كان الرحالون يطوفون البلاد من أقصى العالم المعمور إلى أقصاه ولا

سمر لهم فى الرحلة أشهى ولا أدل على حنكة السائح وطول عهده بالترداد على البلاد من أحاديث الحكمة والفكاهة وأطوار الناس وغرائب الأقطار .

خذها شرودا فى البلاد مقيمة   سمراً الذى سمر وزاد مسافر

فإذا سمعت القصة فى بغداد لم يكن بعيدا عليها أن تسمع فى بلاد الشمال من أوروبا أو بلاد الجنوب من أفريقيا مع قوافل الرحالين والسياح الذين يسمرون بها فى سهراتهم ويتنافسون عليها بين المأثور عن أقوامهم وأوطانهم ، وليس العجيب أن تسرى هذه النوادر هذا السريان المستفيض بين مرامى السياحة ومطارح السفر ، بل العجيب أن يكون للرحالين والسياح حديث غيرها فى لياليهم الطوال كلما فرغوا من أحاديث العمل وما إليه .

ولا ينتظر منا بعد هذه الفوضى الجحوية أن نبت فى نسبة النوادر كلها أو بعضها إلى صاحبها . لأن صاحبها غير واحد ، ولأن أصحابها المتعددين ضروب من الخلق تصلح النوادر لأحدها كما تصلح الآخر ، ولكننا نستطيع أن نقسمها على ثقة إلى أقسامها الواضحة من حيث الدلالة أو من حيث « الدور » الذى تؤديه ومنها ما يمثل الذكاء والحكمة ، وما يمثل البلاهة والحماقة ، وما يمثل التباله والتحامق أو التغابى ، ولايقع اللبس كثيرا بين هذه الأقسام أو بين هذه الأدوار .

وسنختار فيما يلى عشرين نادرة فى كل قسم من هذه الأقسام أو كل دور من هذه الأدوار ، ثم نتبعها ببعض القرائن التى تساعدنا على نسبتها إلى أقوامها مع التحفظ والتوسع فى هذه النسبة الجزافية ، وأما النسبة إلى الآحاد من أصحاب اسم « جحا » أو غير أصحابه فنعرض لقرائنها الممكنة بعد ذلك على قدر المستطاع .

٦٠ نـــادرة

نوادر الذكاء والحكمة

١. أل خبره

كان جحا يتولى القضاء ، فجاءه رجل يستغيث به لأنه وجد طنبوره المسروق ، مع بائع فى السوق ، وأراد أن يأخذه منه فادعاه السارق لنفسه وأنكره ، فأرسل جحا فى طلب البائع المتهم ، وسأل صاحب الطنبور عن شهوده ، فجاءه بشاهدين ، أحدهما صاحب حانه ، والآخر ماجن متبطل بغير عمل ..

وشهد الشاهدان بأنهما يعرفان الطنبور ويعرفان أنه للمدعى ، وعلامته أن فيه كسرا بأعلاه ورباطا بأسفله ، وليست مفاتيحه محكمة الشد والحركة .

وطابقت العلامة وصف الطنبور ، ولكن السارق طلب تزكية الشاهدين وقال إن شهادة الخمار والماجن لاتقبل فى الشريعة ..

قال جحا : « نعم . وأما حين تكون الدعوى على طنبور فالخمار والماجن أصلح الشهود » !

٢. من راقب الناس

كان لجحا ولد يعصيه كلما أمره بعمل ، ويقول لأبيه : « وماذا يقول الناس عنا إن عملناه ؟ » ..

وأراد جحا أن يلقنه درسا ينفعه ، ويعلمه أن رضا الناس غاية لاتدرك فركب حماره وأمر ابنه أن يتبعه ، ولم يمض غير خطوات حتى مر ببعض النسوة فشتمنه وقلن له : « أيها الرجل ! أما فى قلبك رحمة ؟ تركب أنت وتدع الصبى الضعيف يعدو وراءك » ؟

فنزل جحا عن الحمار . وأمر ابنه بركوبه ، ومضى مسافة غير بعيدة ، ثم مر بجماعة من الشيوخ يستشرقون ، فدق أحدهم كفا بكف ، ولفتهم إلى هذا الرجل الأحمق ، وهو يقول ويعيد : « لمثل هذا فسد الأبناء ، وتعلموا عقوق الآباء ... أيها الرجل ! تمشى وأنت شيخ ، وتدع الدابة لهذا الولد ، وتطمع بعد ذلك أن تعلمه الأدب والحياء » ؟

قال جحا لولده : « أسمعت ؟ تعال إذن نركب الحمار معا » .

وما هى إلا لحظة ، حتى مر بهما جماعة من أصدقاء الحيوان صاحوا بهما : « أما تتقيان الله فى هذا الحيوان الهزيل ؟ أتركبانه معا ، وكل منكما يزن من اللحم والشحم ما يزيد على وزن الحمار » ؟

قال جحا لولده : « الآن نمشى معا ونرسل الحمار أمامنا ، لنأمن سوء القالة من النساء والشيوخ وأصدقاء الحيوان » .

وما هى إلا لحظة أخرى حتى مر بهما طائفة من « أولاد البلد » الخبثاء . فجعلوا يعبثون ويقولون لهما : « والله ما يحق لهذا الحمار إلا أن يركبكما أو تحملاه وتريحاه من وعثاء الطريق » !

فمال جحا إلى شجرة ، وأخذ منها فرعا متينا وربط فيه الحمار ، وحمل الفرع من طرف ووضع الطرف الآخر على كتف ولده . فإذا البلد كله وراء هذا الركب العجيب . وإذا بالشرطى يفض هذا الزحام ليسوقهما إلى البيمارستان . .

قال جحا لابنه فى طريقهما مع الشرطى : « هذه يا بنى عاقبة من يستمع إلى القال والقيل ، ولا يعمل عملا إلا ابتغى به مرضاة الناس » !

٣.احصاء المنافقين والرقعاء

كان جحا دائم الشكوى من أهل بلده ، يقول لكل من لقيه منهم أو من الغرباء عنهم أنهم كلهم منافقون رقعاء .

ولامه هذا وراجعه ذاك ، فعمد إلى إقناع اللائمين والمناقضين بأسلوبه فى الإقناع : أسلوب المشاهدة والعيان ، فخلع باب الدار وحمله على ظهره وقال لأول مناقض له فى تشهيره بأهل البلد : « تعال معى واحسب » ! وعند منعطف الطريق صاح به صائح من أهل البلد وهو يضحك : « ما هذا الذى تحمله على ظهرك يا جحا » ؟

قال جحا لصاحبه : « هذا واحد : أتراه لا يعرف الباب الطويل العريض الذى يسأل عنه » ؟

٤.العصا تحمل الأرجل

حمل جحا أوزة مشوية إلى الأمير . وغلبه الجوع ورائحة الشواء فى الطريق ، فأكل إحدى رجليها .

ثم وضعها بين يدى الأمير ، فسأله عن الرجل الناقصة أين ذهبت ؟

قال : « لم تذهب إلى مكان . [illegible] حلة فى هذا البلد » .

ثم تقدم بالأمير إلى نافذة القصر [illegible] قائم على قدم واحدة كعادته فى وقت الراحة ، فدعا الأمير [illegible] وأمره أن يشد على سرب الأوز بعصاه ، وما كاد [illegible] يعدو هنا وهناك على قدميه .

قال الأمير : « أرأيت ؟ إن أوز [illegible] قدمين ولم يخلق بقدم واحدة » !

قال جحا : « مهلا أيها الأمير [illegible] إنسان بهذه العصا لجرى على أربع » !

٥.تماطل الله وتستدين

جلس جحا يبيع زيتونه فساومته امرأة [illegible] على الزيتون الثمن الذى طلبه ، وقالت له : « إذا أردت أن تبيعنى بالثمن [illegible] أخبرتك به مؤجلا ، فأنت تعرف زوجى وهو فلان بن فلان » !

وناولها جحا زيتونة ، لتذوقها وتعرف [illegible] وحقه من الثمن ، فاعتذرت بأنها صائمة لأنها مرضت من [illegible] فى شهر رمضان !

قال جحا : « الآن بطل الخلاف [illegible] تأجيل . . أتراك تماطلين الله سنة ولا تماطليننى إلى يوم القيامة » ؟

٦.تيمور فى الآخرة

وسأله تيمور لنك الطاغية المشهور : « أين [illegible] يكون مثواى فى الآخرة يا خوجة نصر الدين ؟ » .

فقال جحا ولم يتردد : « وأين ترضى أن تكون [illegible] إن لم تكن مع جنكيز خان والاسكندر وفرعون والمروذ » ؟

٧.ثمن طاغية

وسأله تيمور لنك ، وقد أخذه معه إلى [illegible] ، وخلع ملابسه إلا مئزرا يديره على وسطه : « بكم تشترينى الآن [illegible] عرضت عليك فى السوق يا خوجة نصر الدين » ؟

قال : « بخمسين دينارا » .

قال تيمور : « ويحك ! إن ثمن هذا المئزر خمسون دينارا » .

قال جحا : « وهذا هو الثمن الذى حسبته » !

٨ـ الحساب المهضوم

وأراد تيمور أن يصادر أموال الحاكم بمدينة « أق شهر » فاتهمه باختلاس أموال الديوان ، وأبرأ الحاكم بذمته بالحساب المكتوب على دفاتر الديوان الغلاظ . . . فأخذها تيمور من يده ومزقها وأمره بابتلاعها ، ثم أحال حكم المدينة إلى الخوجة نصر الدين .

وحان موعد الحساب فجاءه الخوجة نصر الدين بجلود مطوية نشرها فوجد فى طيها رقائق من الخبز مكتوبا عليها الحساب بالحلوى .

قال تيمور : « ما هذا » ؟

قال الخوجة : « هذا الذى يحتمله جوفى يا سيدى . لأننى شيخ فان ولست فتى ضليعا كحاكمك القديم » .

٩ـ أيهما أحب إليه

وكانت له زوجتان ، فجلس معهما يتسامر ، وطاب لهما أن تحرجاه ، فسألتاه : أيهما أحب إليه .

قال : « أنتما معا حبيبتان إلى قلبى » !

قالتا : « لا ، أنك لاتستطيع أن تضحك منا بهذه المراوغة ، وأمامك هذه البركة نخيرك فى إغراق إحدانا بها ، فمن منا تلقى بها فى الماء الآن ؟ » . .

وحار فى أمره هنيهة ، ثم التفت إلى الزوجة الأولى وقال لها : « أذكر أنك تعلمت السباحة قديما يا عزيزتى » !

١٠ـ المكان الأمين فى الجنازة

وسئل : « أيهما أفضل ؟ المسير خلف الجنازة ، أو المسير أمامها ؟ » .

قال : « لا تكن فى النعش ، وسر حيث تشاء » .

١١ـ القبلة الأمينة

وسئل : « وماذا يستقبل السابح إذا نزل فى الماء » ؟

فقال : « يستقبل المكان الذى عليه ملابسه » .

١٢ـ الفضول

ولقيه بعض معارفه فى الطريق فقال له : « إنى رأيت الساعة رسولا يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر » .

قال جحا : « وماذا يعنينى ؟ » .

قال صاحبه : « أنهم يحملونه إلى بيتك » .

قال : « وماذا يعنيك » ؟

١٣ـ التقوى المهلكة

وسكن فى دار ، فشكا إلى صاحبها أنه يسمع قرقعة فى سقفها

قال صاحب الدار : « لاتخف . إنه يسبح الله » .

قال : « وهذا الذى أخشاه ، تدركه رقة فيسجد علينا » !

١٤ـ حدود الأبوة

وسئل جحا : « هل يولد للرجل بعد بلوغ الستين ؟ » .

قال : « يجوز » !

قيل : « وبعد بلوغ الثمانين » ؟

قال : « يجوز » .

قيل : « وبعد بلوغ المائة » ؟

قال : « نعم . . إذا كان له جار فى العشرين » !

١٥ـ العامة القارئة

وعرض عليه رجل كتابا بالفارسية ليقرأه فتعلل برداءة الخط ، ورد له الكتاب . .

قال صاحب الكتاب محنقا : « وعلام إذن تضع هذه العمامة على رأسك كأنها الرحى ؟ » .

فخلع الشيخ العمامة ، ووضعها جانبا ، وقال له : « دونك العمامة فاسألها ، فإنها صاحبة العلم الذى تبغيه » !

١٦ـ تحويل الجزاء

وصفع رجل « جحا » على قفاه بعرض الطريق يريد أن يسخر منه : فأخذ

جحا بتلابيبه إلى القاضى ولم يقبل منه اعتذاره بالخطأ فيه ، لأنه ظنه من أصدقائه الذين يمازحونه بمثل هذا المزاح الثقيل .

وكان الرجل العابث من معارف القاضى فأحب أن ينجيه من العقاب ، وحكم لجحا بأن يصفعه كما صفعه أو يتقبل منه عشرة دراهم على سبيل الجزاء أو التعويض .

وطمع جحا فى الدراهم فسأل القاضى المدعى عليه : « أمعك الدراهم » وفطن صاحبنا لغرض القاضى فقال : « كلا ، ولكننى أحضرها بعد قليل من البيت » .

وأذن له القاضى بالإنصراف لإحضار الدراهم ، فذهب ولم يعد . وطال الانتظار على جحا ، فأدرك حيلة القاضى واقترب منه كأنه يهمس فى أذنه ، ثم صفعه صفعة عنيفة ، وقال له وهو ينصرف : « إذا عاد إليك الرجل بالدراهم ، فخذها حوالة منى إليك » !

١٧. دعوى بدليلها

وادعى الولاية ، فسأله السامعون عن كرامته ، فقال : « أتريدون منى كرامة أعظم من علمى بما فى قلوبكم جميعا » ؟

قالوا : « وما فى قلوبنا » ؟

قال : « كلكم تقولون فى قلوبكم أننى كذاب » !

١٨. من يلد يمت

واستعار حلة كبيرة من جاره . ثم أعادها إليه وفيها حلة صغيرة . فسأله جاره : « وما هذه » ؟ قال : « هذه بنتها ، ولدتها عندنا » فتقبلها جاره ولم ينكر عليه .

ثم استعاره مرة أخرى ولم يردها ، فلما سأله عنها ، قال : « البقية فى حياتك ، أنها ماتت عندنا فى النفاس ... رحمها الله » .

قال صاحب الحلة متعجبا : « أيموت النحاس ؟ » .

قال جحا : « من يلد يمت ، وقد يموت فى النفاس » .

١٩. ثمن الضرورة

وعطش فى طريقه ، وهو منقطع من الماء فى الصحراء ، فمر به أعرابى

معه قربة ، عرض عليه جحا أن يبيعها إياه فلم يقبل بأقل من خمسة دراهم ، فاشتراها جحا ، وجلس يأكل من طعام دسم كان معه ، واستضاف الأعرابى فأطعمه من الطعام ما أشبعه وأظمأه ، فسأله شربة من القربة ... فلم يقبل منه بأقل من خمسة دراهم .. وباع الشربة بثمن القربة !

ثمن الحمار !

وضاع حماره ، فأقسم ليبيعنه إن وجده بدينار واحد

ثم وجده وندم على حلفه ، ولم يشأ أن يحنث فى قسمه ، فاحتال عليه ... باليمين ، ويحفظ على نفسه ثمن الحمار ، وعرض الحمار فى السوق وقد ... إلى عنقه حذاء قديما ، فجعل ينادى عليه : « الحمار بدينار والحذاء بعشرة ...نير ، ولا يباعان على انفراد » !

٠. الكرام قليل

أمره الوالى أن يعد مجانين البلد ، فقال : « بل أعد لك العقلاء . ومن ...هم كثيرون لا يحصرون » .

٠٠. يقضى على القاضى

جاء الشرطى برجلين إلى مجلس القضاء ، وجحا عند القاضى يحدثه فى بعض شئونه ، فعرض الشرطى قضية الرجلين ، وقال إنه وجد فى الطريق بين بيتيهما أقذارا متنوعة وادعى كل منهما أن جاره مطالب بإزالتها ، لأنه هو الذى وضعها فى عرض الطريق .

وأراد القاضى أن يعبث بجحا ليسخر منه ، ويفضح دعواه ، لأنه كان يدعى العلم ويتصدى للإفتاء ، فأحال عليه القضية ، وسأله أن يقضى فيها بالحق بين الرجلين .

فقبل جحا مقترح القاضى ، وسأل الشرطى : « هل كانت الأقذار أقرب إلى دار هذا أو دار ذاك » ؟

قال الشرطى : « أنها كانت فى الوسط بينهما » .

قال جحا : « إنما يزيلها إذن مولانا القاضى ، لأنها فى الطريق العام ، ومولانا القاضى هو المسئول عن المدينة » ؟

(1) Laughter incorporated .

نوادر الحماقة والبلاهة

١.على قدر الوضوء

توضأ جحا ، ولم يكفه الماء لإتمام وضوئه ، وبقيت رجله اليسرى بغير وضوء ، فقام يصلى برجله اليمنى ولايضع اليسرى على الأرض . .

فسألوه : « ما بالك تقف على رجل واحدة ؟ » .

قال : « الأخرى غير متوضئة » !

٢.أنا مكرر

رأى رجلا فى الطريق لايعرفه ، فتبسط معه فى الحديث ، ورفع الكلفة بعد عبارة أو عبارتين . .

فعجب الرجل وسأله : « ألك بى معرفة فترفع الكلفة هكذا بينى وبينك؟» . .

قال : « بل حسبتك أنا . . لأن ثيابك كثيابى ومشيتك كمشيتى ، ولكنك لست أنا كما علمت الآن » !

٣.ترويج زوجة

وحاول أن يبيع بقرة له فأعياه بيعها ، فرآه دلال فى السوق ، تكفل له ببيعها إذا أسلمه إياها وأعطاه الجعل المعلوم ، وقبل جحا ، فأخذ الدلال ينادى على البقرة ، ويذكر منافعها ومحاسنها ، ومنها أنها حبلى فى ستة أشهر . .

ثم جاء الخواطب إلى داره يخطبون بنته ويتطلعون إلى محاسنها ، فتذكر الصفة التى روجت سوق البقرة ، وقال للخواطب :

« هى كما ترون وزيادة . . أنها حبلى فى شهرها السادس » .

٤.يريح كما يراح

ورأوه يركب حمارا ويحمل خرجه على كتفه ، فضحكوا منه ورموه بالعبث والدعابة ، وقال له قائل منهم : « ألا تعرف كيف تضع الخرج تحتك أو أمامك ولاترهق نفسك بحمله وأنت راكب ؟ » .

قال : « عدل من الله ، أراضى الحمار من حمل نفسى بأن أريحه من حمل خرجى » !

٥.أكبر خوخة

وكان فى منديله فاكهة ، فسأله بعضهم : « ما هذا الذى فى منديلك يا جحا ؟ » .

قال : « لا أقول لكم . ولكنى أعطيكم أكبر خوخة إذا عرفتموه » .

قال السائل : « أنه خوخ » ؟

فانطلق قائلا : « أى ملعون أنبأكم بأمره وهو مصرور » !

٦.أحجية محلولة

ورأى بعضهم أن يمتحنه فقال له : « إن عرفت ما فى منديلى أعطيتك واحدة منه تكفى لعمل عجة مليحة » .

قال : « صفة لى ولا تذكر اسمه » .

قال صاحبه : « أنه أبيض وفى وسطه صفار » .

قال جحا : « الآن عرفته . . أنه لفت حشوتموه جزرا » !

٧.الحمد لله

وضاع حماره فطفق يصيح وهو يسأل الناس عنه : «ضاع الحمار والحمد لله» .

قيل له : « فهل تحمد الله على ضياعه ؟ » .

قال : نعم ، لو أننى كنت أركبه لضعت معه ولم أجد نفسى » .

٨.أربعون يوما من رمضان

وكان من عادته إذا صام يوما فى رمضان أن يلقى بحصاة فى جرة ، ورأته ابنته فألقت فى الجرة ملء كفيها من الحصى ، وهى تظن أنها تساعده .

وسأله الجيران يوما : « كم بقى من رمضان ؟ » .

قال : « أما ما بقى فلا أعرفه ، ولكنى عليم بما مضى من أيامه » .

ثم عد الحصى ، فزاد على مائة وعشرين حصاة .

قال بينه وبين نفسه : « لو أنبأتهم بهذا العدد لسخروا منى ، ولكنى أنزل به إلى أربعين » .

ثم خرج لهم يقول : « مضى من الشهر أربعون يوما على التقريب » .

فتضاحكوا منه ، وتضاحك هو منهم وهو يقول : « إنه شهر طويل على الصائمين ، فماذا تصنعون لو أنبأتكم بالعدد الصحيح ؟ » .

٩. الشمس والقمر

وسألوه : « أيهما أنفع : الشمس أو القمر ؟ » .

فلم يتمهل وأجابهم بيقين : « أنه القمر ولامراء » .

فسألوه : « ولم ؟ » .

قال : لأن الشمس تطلع فى النهار حين يستغنى عنها الناس ، وأما القمر فلا يطلع إلا فى الظلام على حين الحاجة إليه » .

١٠. البحث فى النور

ورأوه يبحث فى أرض لاشىء فيها ، فسألوه : « عم تبحث ؟ » .

قال : « خاتم سقط منى » .

قالوا : « وهل سقط هنا وليس فى الأرض أثر للخواتم ؟ » .

قال : « بل سقط فى الزقاق الذى هناك » .

قالوا : « ومابالك لاتبحث عنه حيث سقط ؟ » .

قال : « وأى جدوى للبحث فى الظلام ؟ » .

١١. حمار ممسوخ

اشترى حمارا واقتاده بزمام طويل ، فتغفله لصان ، ذهب أحدهما بالحمار ، وربط الآخر نفسه فى مكانه .

والتفت جحا فرأى إنسانا فى مكان الحمار .

فاستعاذ بالله ، وسأله : « أين الحمار ؟ » .

قال : « أنا الحمار ، أعادنى الله إنسانا ببركتك كما كنت بعد أن مسخت حمارا لدعاء والدتى على » .

فبارك له جحا ، وأطلقه وهو يوصيه بطاعة أمه ويحذره العودة إلى إغضابها ، وجر الغضب من الله عليه بدعائها .

ثم عاد إلى السوق بعد برهة ليشترى حمارا غير ذلك الإنسان الممسوخ فرأى الحمار بعينه فى يد الدلال ، فمال على أذنه وهمس فيها قائلا : « لن تنفعك بركتى بعد مسختين ، ولن أشتريك وأنت بهذا العصيان » !

١٢. نصف بنصف وتتم الدار

وكان يشارك على دار ، فباع نصفها الذى يملكه ليشترى بثمنه النصف الآخر ، وتخلص له الدار بغير شريك !

١٣. دابة على رمح

ونام فى الخلاء ومعه عكاز طويل ركزه ووضع صرة النقود على رأسه لكيلا ينالها أحد .

فرآه لص وعرف غفلته . فأخذ النقود ووضع فى موضعها روث دابة وتيقظ جحا ، فوجد الروث فى مكان الصرة ، فلم يعجب لسرقة النقود ولكنه عجب للدابة التى استطاعت أن تصعد على عكاز لتصنع به ذلك الصنيع ..

١٤. مكافأة معقولة

وحمل إلى تيمور رمانات باكورة ظهرت فى غير أوانها ، فرضى عنه تيمور وأرضاه ..

ثم طمع فى جائزة أخرى ، فجمع رؤوساً من اللفت ليهديها إليه . فقال له بعض جيرانه أن اللفت لايصلح لإهداء الملوك ، فاذهب إليه بنخبة من التين فهو ألطف وأحلى .

واستكبر تيمور أن يهدى إليه التين وهو يملأ الأسواق ، وأحب أن يكف جحا عن طمعه ، فأمر الجند أن يقذفوه بالتين واحدة بعد واحدة .

فوقف جحا يتلقى الضربات على رأسه وعلى وجهه وعلى عينيه وأنفه وهو يضحك ويدعو للجار الذى أسدى إليه النصيحة الصادقة .

واشتد عجب تيمور من ضحكه ودعائه ، فأمر الجند أن يمسكوا عن ضربه ، ليسأله عن سر ذلك الضحك وذلك الدعاء .

قال : « إنه سر عظيم ، لو كان اللفت فى موضع هذا التين ، لتهشم رأسى وأنفقأت عيناى » !

١٥.بروج نامية

وسألوه : « ما طالع نجمك ؟ » .

قال : « ولدت والشمس فى برج التيس » .

قالوا : « لايوجد فى السماء برج يسمى برج التيس ، ولكنك تعنى برج الجدى » ..

قال : أفمن مولدى إلى اليوم لايصبح الجدى تيسا ؟ » .

١٦.كيف يعرف يمينه؟

وانطفأت شمعة فى داره فطلبت منه زوجته أن يناولها إياها من يمينه قال : «يا حمقاء ! وكيف أعرف يمينى من شمالى فى هذا الظلام ؟ » .

١٧.أدب مع التلاميذ

وركب بغلته مستدبرا رأسها فسأله تلاميذه : « لماذا لاتعتدل فى ركوبك يا مولانا ؟ » .

قال : « هذا هو الاعتدال ، أدير ظهرى لرأس البغلة ولا أديره لرؤوس الآدميين ! » .

١٨.يسمع صوته من بعيد

ورأوه يوما وهو يغنى ويجرى ، فسألوه : « ما بالك تغنى وتجرى ؟ » .

قال : « أحب أن أسمع صوتى من بعيد ! » .

١٩.لماذا ينتشرون؟

سألوه : « لماذا ينتشر الناس فى جوانب الأرض ، ولماذا يذهبون ذات اليمين وذات اليسار كل صباح ؟

فتأمل قليلا ثم قال : « لو ذهبوا إلى ناحية واحدة ، لمالت بهم الأرض وانكفأت بهم فى هاوية ليس لها قرار ! » .

٢٠.لماذا لا تأكله؟

ومر بفرن تتصاعد منه رائحة الخبز الساخن . وهو يشتهيه ، ولايقدر عليه لخلو يده . فاتجه إلى الفران وسأله : « ألك كل هذه الرغفان ؟ » .

قال : « نعم » قال : « ولماذا لا تأكلها يا أحمق ؟ » .

نوادر التحامق والتباله

وهذه نوادر منسوبة إلى جحا تتوسط بين الحكمة البينة والحماقة البينة ، لا نقتصر فى اختيارها على النوادر التى يصطنع فيها الحمقة ويتكلفها كأنه يمثلها ويستعيرها ، ولكننا نختار من هذه النوادر كما نختار من النوادر التى لا تحسب بطبيعتها من الحكمة ولا تحسب من الحماقة ولكنها تتوسط بينهما وتغلب عليها هذه مرة وتلك أخرى ، وكلها قد نسبت إلى جحا كما نسبت بموضوعها أو بمغزاها إلى ذوى السمعة الفكاهية من أمثاله .

١.أحمق وأحمقان

رآه الطحان يأخذ من قفف الناس ويضع فى قفته ، فصاح به : « ما هذا يا جحا ؟ » .

قال جحا : « لا تؤاخذنى فإننى رجل أحمق » .

قال الطحان : « لو كنت أحمق لأخذت من قفتك ووضعت فى قفف الناس» !

قال : « ويحك ! أنا أحمق واحد ، ولو صنعت كما تقول لكنت أحمقين » !

٢.ما لا يغتفر

ولقيه بعضهم يلهو فقال له : « أنت هنا تلهو وامرأتاك تقطع إحداهما الأخرى؟ » .

ولم يشأ أن يدع مجلسه فسأل الرجل متضاحكا : « أقالت إحداهما للأخرى شيئا يتعلق بالعمر » ؟

قال : « كلا » .

قال : « إذن لاداعى للوساطة ، فإنها مشكلة سليمة » !

٣.مرق مرق المرق

جاءه ضيف ريفى ومعه أرنب فأكرمه وشيعه كما استقبله بالحفاوة والتحية ..

ثم مضى أسبوع وجاءه ضيف من بلدة صاحب الأرنب وقال له أنه جاره القريب .

ثم مضى أسبوع أو أسبوعان وجاءه من تلك البلدة جيران كثيرة يزعمون جميعا أنهم جيران الرجل فى داره أو حقله أو دار أحد من أهله .

فأجلسهم جميعا على السماط وجاءهم بطست كبير فيه ماء غال ، وأومأ إليهم قائلاً : « تفضلوا فكلوا من مرق مرق الأرنب ، يا جيران جيران صاحب الأرنب المشئوم » !

٤.بلبل ولا كالبلابل

وصعد على شجرة يقطف من ثمرها فحضر صاحب البستان وفاجأه وهو على تلك الحال .

قال صاحب البستان : « من أنت يا هذا ؟ » .

قال جحا : « أنا بلبل أتنقل على الأغصان » .

قال صاحب البستان : « أسمعنا إذن من غنائك أيها البلبل العجيب » .

فتغنى جحا بصوت لا يسمع ولا يشبه تغريد البلبل ، وقال صاحب البستان : « ما هذا بتغريد بلابل » .

قال جحا : « هاتها واسمعها ، ألم تقل إننى بلبل عجيب ؟ » .

٥.مصيبة أكبر من مصيبة

ونظر تيمور إلى وجهه فى المرآة بعد أن تنعم وتعود معيشة القصور فانقبض لمنظره القبيح ، ولمح وزيره انقباضه فأخذ يواسيه على عادة الوزراء بما يسرى عنه ، وقال له فيما قال : « مثلك أيها الخاقان الأعظم لا يأسى على جمال الوجوه وقد أعطاك الله بسطة فى الجسم وبسطة فى القوة وبسطة فى الثروة والسلطان ، وإنما يأسى على جمال الوجوه النساء وأشباه النساء من الرجال » .

فانبسطت أسارير الطاغية ، وابتسم راضيا عما قاله الوزير ، ولكنه التفت إلى الخوجة نصر الدين فرآه يبكى ويستخرط فى البكاء . .

قال له : ما خطبك يا خوجة نصر الدين ؟ أنا صاحب المصيبة تسليت وأنت تأبى أن تتسلى ؟ » .

قال جحا : « معذرة يا مولاى ، إن مصيبتى أكبر من مصيبتك أضعافا مضاعفة . أنت نظرت إلى وجهك مرة فانقبضت ، فماذا أصنع أنا الذى أنظر إليك بالليل والنهار مرات ؟ » .

٦.نقل

دخل لص منزله وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية الأثاث حتى دخل وراء اللص إلى داره .

ونظر اللص وراءه فرآه يدخل الدار ، فسأله : « من أنت يا هذا ؟ » .

قال : « أنا صاحب هذه الدار التى نقلتنا إليها ! » .

٧.كلهم محقون

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه شكواه ، فقال له : « أنك محق فى شكواك أيها الصديق » .

وجاءه الصديق الثانى فى اليوم التالى فعرض عليه شكواه فقال له كما قال لخصمه : « أنت محق أيها الصديق » .

وكانت امرأته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة :

« يا لك من منافق ، خصمان مختلفان ، وكلاهما محق فى شكواه ! ؟ » .

قال : « ولماذا تغضبين ؟ أنت محقة أيضا فيما تقولين ؟ » .

٨.تنقلب الدنيا

وأراد أن يتزوج ، فبنى دارا تتسع له ولأهله ، وطلب من النجار أن يجعل خشب السقوف على أرض الحجرات ، ويجعل خشب الأرض على السقوف ، فراجعه النجار دهشا ، ولم يفهم ما يعنيه .

قال جحا : « أما علمت ياهذا أن المرأة إذا دخلت مكانا جعلت عاليه سافله؟ أقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج » .

٩.خروف على عيبه

وأرسله أبوه يشترى له رأس خروف مشوى بأقل من ثمنه ، فأكل فى الطريق لسانه ، ثم راودته نفسه فأكل عينيه ، ثم أكل أذنيه ، ثم أكل شواته (جلدة رأسه) ومخه ، وذهب به إلى أبيه جمجمة نخره .

فجعل أبوه يقلبها ويسأله : « أين مخه » ؟

فيقول جحا : « كان مجنونا بغير عقل » .

فيسأله : « وأين عيناه » ؟

فيقول جحا : « كان أعمى » .

ويسأله : « وأين شواته » ؟

فيقول جحا : « كان أقرع » .

ويسأله : « أين لسانه » ؟

فيقول : «كان أخرس أعجم » .

قال أبوه : « فاذهب رده إلى صاحبه » .

قال : « إنما اشتريته بقليل الثمن على البراءة من كل عيب » .

١٠. العقاب قبل الذنب

وناول بنته الصغيرة جرة تملأها ، وحذرها أن تكسرها ، وأنذرها لئن كسرتها ، ليصفعنها هكذا ، وأردف الإنذار على الأثر بصفعة قوية أبكتها . .

فنظر إليه عابر طريق ولامه على ضرب البنت الصغيرة فى غير جريرة ، وقال له : « اتضربها قبل أن تكسرها » ؟

قال : « يا أحمق ، إنما اضربتها لتعرف ألم العقاب فتحذره ، وأما بعد كسر الجرة فما الفائدة من ضربها ؟ » .

١١. العائل الأكبر

سأله الأمير : « كم عيالك » ؟

قال : « سبعة » !

فأعطاه لكل من عياله مائة درهم ، وخرج جحا ، ثم عاد إليه على الأثر وهو يقول : « نسيت واحداً أيها الأمير أنفق من مالى عليه كما أنفق هؤلاء » .

قال الأمير : « من يكون يا ترى » ؟

قال : « أنا أكبر عيالى أيها الأمير » .

١٢. يأكلون بالضرب

وذهب إلى قونية ، فاعترضه فى طريقه دكان حلوى تعرض فيه أصناف الفطائر والفاكهة المسكرة صابحة شهية فأهوى عليها يأكل منها بلا استئذان ، وأهوى صاحب الدكان عليه بالعصا يريد أن يحول بينه وبين حلواه ، فتغابى جحا وراح يثنى على أهل قونية ، ولم يزل يقول : « يالكم يا أهل قونية من قوم كرام ، تطعمون الناس بالعصا والكرباج » !

١٣. ماذا يفعل الحذاء ؟

ولبس حذاء جديدا ، فنظر إليه بعض الشطار وأرادوا أن يحتالوا عليه ليسرقوه ، فسألوه : « أتستطيع أن تصعد على هذه الشجرة وتأتى بشيء من ثمرها» ؟

قال : « نعم . فكم جعلتم » ؟

فأعطوه ما تيسر لهم وانتظروا أن يخلع حذاءه ليصعد ، فلم يفعل ، بل صعد على الشجرة ومعه حذاؤه تحت ابطه .

قالوا : « وماذا تصنع بالحذاء على الشجرة » ؟

قال : « إذا ألقيت إليكم الثمر فماذا يعنيكم من الحذاء ؟ . . أما أنا فلعلى أحد لى طريق سفر من أعلى الشجرة فأذهب ولا أعود إليكم » . .

١٤. لولاك يا كمى

وذهب إلى وليمة بثياب العمل ، فطرده الخدم من الباب فعاد إليهم بثيابه المدخرة ، وعليه حلة من الحلل التى يخلعها عليه الأمراء ، فأكرموه وتقدموه إلى مكان المائدة ، فغمس كمه فى الصحان واحدة بعد واحدة ، وطفق يقول له كأنه يناجيه : « كل ، كل يا كمى ، فلولاك ما وصلت إلى هذا الطعام » !

١٥. ماذا أضاعت؟

وقيل له : إن امرأتك أضاعت عقلها ، فأطرق يتأمل ، وقام إلى داره يبحث فيها . .

قالوا : « ماذا تصنع يا جحا ؟ » . .

قال : « إنكم تقولون أنها أضاعت شيئا ، ولن يكون ذلك الشيء عقلها ، فإننى لا أعرف لها عقلا تضيعه » !

١٦. بالدور

وقيل له : إن امرأتك تتردد على البيوت وتطيل المكث فيها .

قال : « غير صحيح ، ولو كان صحيحا لوصلت إلى دارنا » . .

١٧. أصدق من الحمار

ورجاه بعض جيرانه أن يعيره حماره ، فاعتذر له بذهابه إلى الغيط ثم نهق الحمار وهو يكلمه ، فعاتبه الجار قائلا : « أليس هذا حمارك ينهق فى الدار ، وأنت تزعم أنه ذهب إلى الغيط » ؟

قال : « سبحان الله ، تكذبنى وتصدق الحمار » ؟

١٨. يصلح لكل شيء

وسأل امرأته ، وقد جاءها برطل من اللحم : « لماذا يصلح هذا » ؟

قالت : « يصلح لكل شيء » !

قال : « فاطبخي عليه إذن كل شيء » .

١٩. قسمة الله

واختاره قوم للقسمة بينهم فسألهم : « أترضون قسمة الله أو قسمة عبيده »؟

قالوا : « بل قسمة الله » .

فأعطى أحدهم درهمين ، وأعطى الثانى دينارين ، وأعطى الثالث لحافا ، وأعطى الرابع سريرا عليه خشبة ، واستبقى سائر التركة بين يديه .

قالوا : « ويلك ! أهذه قسمة الله ؟ » .

قال : « انظروا حولكم تفهموا قسمة الله وحكمة الله » .

٢٠. منوم موصوف

وطلبت منه امرأته أن يعود إليها فى طريقه من المسجد بدواء منوم لطفلهما الذى يؤرقهما بالبكاء والصياح .

فعاد وليس معه غير الكتاب الذى يقرأه

قالت : « لعلك نسيت الدواء » ؟ ..

قال : « معاذ الله ، هذا هو الدواء ، وقد جربته اليوم فى الكبار فناموا جميعا ، فجربيه أنت فى الصغار » .

موازين غير محكمة

هذه النوادر الستون التى تقدمت فى الفصل السابق تصور لنا أقسام النوادر التى تنسب إلى جحا ، وقد تنسب إلى غيره ، ومنها ما ينبىء عن حكمة ظاهرة ، وما ينبىء عن بلاهة ظاهرة ، وما ينبىء عن بلاهة مستترة بين الحكمة والبلاهة .

وتندر بينها النادرة التى لم تنسب إلى مصادر متعددة من الحكماء والحمقى والمحمقين ، وبعضها يروى عن أناس فى الغرب الحديث كالنادرة التى تروى عن الشجار بين المرأتين ، فإن الأولى تروى عن نابليون وطبيبه والثانية تروى عن جولد سمث الكاتب الانجليزى المشهور الذى قيل فيه أنه أحمق الناس إلا حين يتناول القلم فهو إذن من أحكم الناس ..

قيل أن نابليون سأل طبيبه حين كان مشغولا بأمر ولاية العهد : « هل يولد للرجل فى الستين ؟ وهل يولد له فى السبعين ، وهل يولد له فى الثمانين » ؟ فكان جواب الطبيب عن ابن الستين نعم ، وعن ابن السبعين ، نعم فى الندرة ، وعن ابن الثمانين أنه يولد له إذا كان له جار فى العشرين ..

وقيل إن امرأة جولد سميث وأخته تشاجرتا وهو غائب عن المنزل ، فأدركه أحد جيرانه وأنبأه بأمر هذه المشاجرة ، فسأله : « هل قالت إحداهما للأخرى أنت شوهاء » قال الجار : « كلا » . قال : إذن هى مشاجرة مأمونة » .

وقد سبقت الإشارة إلى نوادر متشابهة بين الفكاهة المصرية والفكاهة فى المجر وأوروبا الوسطى ، ولا يصعب تعليل ذلك بتوارد الخواطر فى الجواب البسيط على سؤال واحد أو سؤالين ، وقد يعلل الكثير منه بإطلاع الغربيين على النوادر التى ترجمت لهم فى العربية فى القرون الوسطى وقد يكون المتشابه من تلك النوادر إضافة جديدة فى الكتب المطبوعة لم تتداولها ألسنة الناس قبل ذلك .

إلا أن النوادر التى لاشك فى مصدرها الشرقى كثيرة بين النوادر المنسوبة إلى جحا وأمثاله ، وهى على الجملة نوادر الزوجتين والقضاة الدينيين والضيافات التقليدية ونوادر الصيام والصلاة والفتاوى وما هو من قبيلها ..

فهذه لاشك فى مصدرها الشرقى من تخوم الصين إلى آسيا الصغرى ووادى النيل ، فأين هو معيار النسبة الصحيحة بين كل هؤلاء الأقوام والأمصار والأقطار ؟

فى النسبة التاريخية بعض المعايير النافعة على غير حسم ويقين . لأن النادرة قد تقع فى القرن الثانى أو الثالث وتصحف بعد ذلك لتوائم القرن الذى نقلت إليه ، وما لم تكن مكتوبة فى مرجع معروف التاريخ فلا سبيل إلى الجزم بنسبتها إلى زمن من الأزمنة على وجه اليقين .

والمعيار الآخر « تقريبى » كالمعيار التاريخى لاينتهى بنا إلى الحسم ولا يسلم من اللبس والاشتباه ، وذلك معيار الخصائص القومية التى نميزها بالظن ونقارب بالظن بينها وبين النوادر التى توائمها ولاتوائم غيرها ..

وقد أسلفنا أن طبيعة الفرس تغلب عليها الصوفية والمحاولة الدبلوماسية ، وأن طبيعة الترك يغلب عليها تحصيل الحاصل مبالغة فى الواقع ، وأن طبيعة العرب يغلب عليها الخيال والقياس المنطقى ، وتبالغ بها الفكاهة فتجنح بها إلى الوهم والقياس مع الفارق الواحد أبو الفوارق الكثيرة .

أفلا يعقل أن العبقرية التى أخرجت لنا القول بتسخير الجسد والأعضاء لحالات الروح تخرج لنا فى الفكاهة ـ والمحاولة الدبلوماسية ـ قصة الأوزة التى يخلق لها الخوف رجلين والرجل الذى يخلق له الخوف أربعا إذا عدا وراءه من يشد عليه بالعصا ؟

جائز أو راجح ، وهذا غاية ما هناك ، ومثلها نادرة الولد العاق الذى مسخته دعوة أمه حمارا ثم عاد إلى الآدمية ببركة الشيخ .

وكذلك يعقل أن تحصيل الحاصل يخرج لنا فى بلاد الترك قصة المرأة التى يقال لزوجها أنها تدور فى البيوت ، فيأخذ بالواقع ـ المفرط ـ ويقول : لو صح ذلك لدخلت إلى بيتنا .

* * *

ومثل هذه القصة قصة الرجل الذى يصطنع التعمية ويعلن أنه يعطى أكبر «خوخة » فى المنديل لمن يخبره بما فيه ، ومثلها قصة الرجل الذى يضربونه لأنه يأكل الحلوى فيحمدهم لأنهم يكرهونه على الأكل بالسوط والعصا ..

كذلك يعقل أن القياس مع الفارق يخرج لنا نادرة الرجل الذى باع نصف الدار ليشترى النصف الآخر وتخلص له الدار بتصفيتها ، فما كل شراء يجمع للشارى بين النصفين ولكنه قياس مع الفارق لشراء على شراء والحماقة التى أدخلت فى روع صاحبها أن السحابة علامة صالحة للحفرة التى تحفر تحتها ـ هى

بعينها التى ترى على الرمح روثة فلا تفهم منها إلا أن الدابة صعدت على الرمح . لايبقى عليها إلا البحث فى طريق الصعود ..

هذه معايير تقريبية لا نأخذ بها ولانهملها ، لأن إهمالها إهمال لدراسة واسعة من دراسات العصر قابلة للمزيد من التوسع والأحكام .

وقد تعمدنا أن نختار بين النوادر السابقة طائفة من أشهر النوادر بين العامة والخاصة فى البلاد العربية ، لأنها اشتهرت حتى أصبحت علما على جحا دون غيره من جمهرة الناس التى تتناقل النوادر والأحاجى من فم إلى فم ولاترجع إلى الكتب والأوراق ، فليس من الجائز أن نسقطها من كتاب يدور فيه الكلام على جحا وما ينسب إليه من النوادر والحماقات ، ومعظم نوادر جحا من قبيل هذه النوادر الساذجة فى تأليفها وموضع الحكمة فيها ، ولعلها ثلاثة أرباع المجموعة التى بلغت قرابة ستمائة ، وعتها الطبعة التركية كلها إلا القليل الذى تناثر من صدر الإسلام إلى أيام الدولة العباسية بين كتب الأدب والفكاهة ، وفيها من الأسلوب الأدبى والذوق الفنى ما ليس فى معظم النوادر الشائعة .

فإن هذه النوادر الشائعة أقرب إلى النفاية التى تتناقلها العجائز لتسلية الأطفال ومن هم فى مثل مداركهم من السذج والجهلاء ، وموضعها بين المحفوظات الشفوية التى يسميها الغربيون بالفولكلور أوقع من موضعها بين كتب الأدب والفكاهة الفنية ..

جحا فى الأدب

جحا فى الأدب ، أو على الأصح النوادر الجحوية فى الأدب لأن هذه النوادر على أنواعها موزعة بين زمرة من الحمقى والمحمقين بدأت الكتابة عنهم من القرن الأول للهجرة واشتهر منهم فى الأدب العربى رهط يبلغ العشرة ويزيد عليها ، منهم هبنقة الأحمق وباقل العبى وأشعب الطفيلى وبنان الموسوس وأبو العبر المتحذلق ومزبد المدينى والحموى الشاعر ، وغيرهم من المحتالين بالحماقة أو التطفيل أو الخلاعة ، وليس فيهم من الخلة الجحوية إلا اتساع كلمة الغفلة للاشتقاق بين غافل ومتغفل ومتغافل ، على بعد ما بين هذه المشتقات من المعانى والألوان .

وهؤلاء الذين وردت أخبارهم فى كتب الأدب أرفع فى طبقة «الذوق الفنى» من جحا فى جملة نوادره وأخباره ، فليس فيهم من يسف بأضاحيكه إلى الصبيانية أو السذاجة السخيفة كما يلاحظ على الكثير من نوادر جحا التى وصلت إلينا مضافا ليها نوادر المجموعة التركية ، وهى محيطة بما وضعه الترك وما وضعه غيرهم من عامة الشعوب الشرقية الإسلامية ، وبعضه مما وضعه غير المسلمين من جيران الترك العثمانيين ـ كالأرمن ـ ونسبوه إلى جحاهم المسمى عندهم باسم « ارتين » .

وعلة هذه النقاوة فيما أثبته المؤلفون المتأدبون أنهم أسقطوا البارد الغث من النوادر ، ولم يثبتوا إلا ما فيه معنى وله طعم فى مذاق الأديب والفنان ، فلا تجد ـ مثلا ـ فى تلك النوادر ما تحسبه من تأليف الصبيان أو أشباه الصبيان من السذج والجهلاء . وما فيه دليل على الغفلة أو التغافل فهو دليل عليهما بحق فى عرف الذكى اللبيب ، وليس مما يكثر فيه الخلط ليحسب من الغفلة أو التغافل فى عرف الصغار والإغرار .

ولو كانت كل النوادر الجحوية من قبيل نوادر المزيد أو الحموى لكانت طرازا من هذا الفن لايعدله طراز فى لغة من اللغات ، ولكانت بابا من أبواب الدراسات الصادقة للفكاهة الفنية والعوارض النفسية التى يعتمد عليها من يجد فى البحث عن شواهد التحليل .

فمن كلام الحمدونى حين لاموه على التحامق : « إن حماقة تعولنى خير من عقل أعوله » .

ومن أضاحيك المزيد ، أنه هم بتطليق امرأته فذكرته طول الصحبة ، فقال لها : « والله ما لك ذنب غيرها » .

ومن أضاحيكه أنه سمع عن صيام يوم بمثابة صوم سنة . فصامه إلى الظهر وأفطر ، وقال : « حسبى من الثواب ستة أشهر ، نحسب منها شهر رمضان » .

ولو اجتمعت ستمائة نادرة من هذا الطراز لكانت كما أسلفنا ذخيرة لا مثلها ذخيرة فى آداب العالم ، ولكنها لاتجتمع بطبيعتها ولا مناص من اختلاطها بالسخف والهراء كلما تناقلها العديد الأكبر من عامة الرواة ، وأضافوا إليها ما يخترعونه باجتهادهم على حسب مداركهم ، أو ما يستدركون به الفوات والنسيان .

والكتب التى جمعت هذه النوادر المنتقاة تعد من أمهات كتب الأدب إلى أيام الدولة العباسية ، ثم يعرض لها الإسفاف والابتذال فيما بعد ذلك من الشيوع والذيوع أو من جراء الهزال والاضمحلال فى دور المهانة والجمود .

وأشهر هذه الكتب نثر الدرر للأبى والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى والمحاضرات لأبى القاسم الراغب الاصفهانى ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الأخبار لابن قتيبة وأخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزى والعقد الفريد لابن عبد ربه وفوات الوفيات لابن شاكر وذيل زهر الآداب للحصرى والمستطرف للأبشيهى وثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ، وحلبة الكميت للنواجى . ثم من هذه الطبقة كتاب الفاشوش فى حكم قرقوش لابن مماتى وكتاب مضحك العبوس لابن سودون المجنون ، ويستطرد الإسفاف بعد ذلك إلى القرن الرابع عشر للهجرة وفيه ظهرت مجاميع النوادر المنسوبة إلى جحا منقولة عن إخلاط الناس فى كل أمة تناقلت هذا الاسم بين الأمم الشرقية .

الأدب الجحوى بعد النهضة الشرقية

وازدهر الأدب الجحوى بعد النهضة الشرقية الحديثة . فظهرت المؤلفات على مناهج شتى ، يقتبس بعضها من نوادره للأغراض التعليمية ، ويستخدم بعضها هذه « الشخصية » لأغراض النقد الاجتماعى على طريقة التحامق والحكمة التى تجرى على ألسنة المجانين ، ويعنى بعضها

بالإحصاء التاريخى والاستقصاء فى تدوين الروايات والأسانيد ، ويرجع هذا الازدهار فى الأدب الجحوى بعد عصر النهضة الحديثة إلى العناية بإحياء الآثار السلفية كما يرجع إلى شيوع النقد الاجتماعى بأسلوب الجد والفكاهة .

ولقد نبهت النهضة الشرقية أناسا من الأجانب المقيمين فى الشرق ـ كما نبهت الشرقيين ـ إلى استكشاف طبائعه وملامحه وألوان شعوره وتفكيره ، فكان من هذه الألوان البادية هذا اللون من الفكاهة الشعبية التى تدور حول «شخصية جحا» الساذجة ونوادره التى يتداولها الشعب للسخر منها أو للسخر بها ، وقام اثنان بترجمة نوادر جحا إلى الفرنسية باسم « كتاب جحا الساذج » هما البرت عداه والبرت جوسيبوفيشى Albert Ades and A. Josiponici الذى كان من موظفى القصر الملكى وممن حضروا بعض الدروس الإسلامية فى الأزهر الشريف ، وكان مولده بالقسطنطينية سنة ١٨٩٢ فكانت له معرفة بالتركية والعربية واطلاع على نوادر جحا فى مصادرها المختلفة ، وأما صاحبه البرت عداه فقد ولد بالقاهرة ـ سنة ١٨٩٣ ـ وتعلم فى مدارسها وحضر بعض الدراسات الأزهرية ، وأمكنه أن يفهم النوادر فى لهجتها الشعبية أو لهجتها المعربة الشبيهة بالشعبية .

وقدم الكتاب المترجم إلى قراء الفرنسية الأستاذ أكتاف ميربو Mirbcau بكلمة موجزة كتبها فى أثناء الحرب العالمية (٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٦) وقال فيها إن المؤلفين لايشرحان شيئا لأن الحياة لاتشرح نفسها وما كان « جحا » إلا فلذة من الحياة الشرقية تعيش ولاتحتاج حيث تعيش إلى تفسير ، مألوفات الحياة الدارجة بغير بحث ولا انتقاء ، وإذا بدأ فيها أثر من الغرابة فإنما ترجع هذه الغرابة إلى اختلاف الجيل مع تشابه الشخصيات وتكرار أمثالها فى كل جيل .

وما كاد هذا الكتاب يظهر بالفرنسية حتى ترجم إلى اللغات الأوروبية وأقبل عليه المثقفون لأنه معرفة يستزيدونها كما أقبل عليه عامة القراء لأنه يروقهم بفكاهته ووقائع الحياة الممثلة فيه ، ومن هذه التراجم ترجمة بالإنجليزية ظهرت باسم جحا الأحمق Goha the fool أو جحا الغر « البسيط » . .

وآخر ما ظهر من الكتب الأوروبية عن جحا كتاب مغامرات بخارى الذى ألفه الكاتب الروسى ليونيد سولفييف Leonde Soloviev (سنة ١٩٤٨) وترجمه إلى الانجليزية تاتيانا شيبونينا Shebunina فى هذه السنة ، وتخذ المؤلف من شخصية جحا فى هذا الكتاب داعية جوالا يضطرب فى البلاد

وكراهة للمقام ، ويمضى هنا وهناك ليشهر
ناس بالضرائب وتلتمس لها أسبابا من الهباء
بين الأرض والسماء ، ومثال هذه المعاذير التى
لمكاسين استوقفوا جحا على باب مدينة ليسدد
فيها ، فلما قال للمكاسين أنه لايقصدهم
بالضريبة ضعفين : إحداهما للعمل المربح
لأن من يتجر مع قوم يزورهم بغير مراء .

على نوادر جحا لأنها وافقت عندهم نماذج من
يتناقلون حكاياتها الصحيحة أو الموضوعة . وربما
إلى الغرب بالتنقل والرواية الشفوية والاطلاع
أو ترجمتها ، ولايبعد أن يكون كثير من هذه
أبناء جزيرة مالطة الذين يتحدثون فى لغتهم
شخصية جحا تسمى عندهم جهان ، وهو
من الأسماء العربية التى يتسمى بها أبناء تلك
مشهورة باللغة الإيطالية فلا نخاله من قبيل هذا
. لأن مادة « جوكا » بمعنى المزاح والضحك
ية والسكسونية ، ومنها كلمة « الجوكندا »
المبتسمة » من عمل ليوناردو دافنشى الفنان

شخصيات فى الغرب تشبه شخصية « جحا » فى
حماقة تارة أخرى ، ولاتنسى فى هذه العجالة
إلى يومنا هذا عنوانا لصحيفة سيارة باسم
punchinello من بقايا التمثيل الصامت
المعروف عندنا بصندوق الدمى والألاعيب .

كلمة إلى أصلها القديم . فمن الشائع فى
اسم مصحف من اسم مهرج سخيف يسمى
معروفا فى القرون الوسطى ثم اتخذوا اسمه

الشاعة والمشابهة فى اللفظ مع الاختزال

والتصحيف . والأرجح أن الاسم مصحف من اسم بنشيوس بيلات Pontius Pilate أو بيلاطس الذى حدثت فى عهد ولايته محاكمة السيد المسيح . فقد كانت هذه « الشخصية » محور السخرية والإهانة فى المسرحية الدينية التى كانت تمثل محاكمة السيد المسيح وتعرض أعداءه فى صورة رمزية يقابلها النظارة بالتهكم والاستهزاء . وقد يكون وصف القرقوز بالسواد كما يسمى باللغة التركية منظورا فيه إلى هذه المسرحية « السوداء » أو مأخوذا من الستار الأسود الذى يحجب الدمى والألاعيب . وهكذا تنتقل الشخصيات والمناظر بين الشعوب ثم تنعزل فى كل أمة بخصائصها بعد نسيان وسائل الانتقال .

وأيا كان مصدر هذا « البنش » فهو باق إلى اليوم يصغى الناس إلى فكاهاته متفرعة متجددة ، متطورة ، كما نقول بمصطلحات زماننا وقلما يعنيهم أن يتتبعوها إلى جذرها القديم .

* * *

ومن أطوار الشعوب فى تناقل الفنون أو الموضوعات الفنية أن نهضة الشرق نبهت الأوروبيين إلى تراث الشرقيين القديم وأن عناية الأوروبيين نبهت إليه أناسا من الشرقيين الذين يكتبون باللغات الأوروبية ، فوضع الأستاذ عسكر نحاس باللغة الفرنسية كتابا سماه « تأملات ابن جحا » يحاكى فيه الابن أباه بالحكمة المازحة والدعابة الحكيمة ، ومن أمثاله قوله عن المرأة « أنها خلقت فى الرجل الأنانية لتحقيق مطالبها » وأن « امرأة واحدة تبحث عن سيد ، ولكن امرأتين معا تبحثان عن فريسة » وأن « الرجل الشرير فى عين المرأة الخائنة هو السمكة التى ترفض الطعم » و « أن المرأة تعذب رجلها عقابا له على أنها شىء لا غنى عنه لديه » .

وسينشأ لجحا بعد ابنه هذا حفدة وأبناء حفدة ، ولا نظنهم جميعا قالوا ـ بعد ـ كلمتهم الأخيرة باللغة العربية ، أو التركية ، أو بسائر اللغات ، فإنهم خالدون بخلود النفس البشرية بين كل قبيل .

خلاصة تاريخية

والخلاصة من الناحية التاريخية - وهى أقل النواحى ثبوتا وأهمية فى هذا المبحث - أننا نستطيع أن نتقبل أبا الغصن جحا كما ذكره الميدانى فى أمثاله كأنه شخصية تاريخية لا غرابة فى وجودها ولا داعية للشك فى إمكان وقوع النوادر المنسوبة إليها ، فإن الذين يشبهون أبا الغصن هذا فى غفلته وسهواته يوجدون فى كل بيئة ، وفى كل زمن ، وإن تنوعت المناسبات والأحوال التى تكشف للناس عما طبعوا عليه من الغفلة . .

ويلحق بأبى الغصن أناس على شاكلته لم يشتهروا مثل اشتهاره ولم يسمع بهم الأمراء والولاة كما سمعوا باسمه وخبره ، فيطلق الناس عليهم اسم جحا نبزا أو تشبيها أو تغليبا أو تفيهقا بالحكاية النادرة التى تدل على علم بأخبار السلف إذا رويت عن مشهور متقدم ولا تدل على شىء من ذلك إذا رويت عن سكان البلد فى ساعتهم الحاضرة ، ويعمل الوضع و « القفش » عملهما أثناء ذلك فيجتمع من النوادر الجحوية ما تصح نسبته إلى شخصية قديمة أو حديثة وما تصح نسبته إلى أحد غير وضاعه ومخترعيه من الرواة والملفقين .

ونحن فى عصرنا هذا قد شهدنا نشأة أمثال هذه الشهرة الصحيحة والمخترعة وشهدنا تطورها من مبدأها إلى مصيرها بعد عشرين أو ثلاثين سنة . وكان «الفضل » فى ذلك للصحافة الأسبوعية المضحكة التى كانت تقوم فى أوائل القرن العشرين على « القفش » والملحة المخترعة . ويعلم الكتاب والقراء والمستمعون أنها تلفيق يعتمد على أصل ضعيف . وأنها براعة فى صناعة «القفش » ويتنافس فيها أولئك الصحفيون ، وهم ولا ريب خلفاء الندماء الذين كانوا يتولون هذه الصناعة فى صدر الدولة الإسلامية وما يليه من العصور قبل نشأة الصحافة .

رأينا الأديب « إبراهيم الدباغ » يأكل فى مأدبة فلم نلحظ عليه شيئا من النهم الذى اشتهر به بين المتندرين ، وسألنا صاحبا له فقال أنها أكله واحدة أو أكلات قليلة بعد جوع أكسبته هذه الشهرة الباطلة . وأنت تعلم أنه كثير السخرية والاستهزاء بالأدعياء من محترفى الأدب والصحافة الذين يتزاحمون على مجالس الأغنياء . فانتهزوا « فرصة » هذا النهم الموقوت للقصاص والوقيعة وملأوا الصحف الأسبوعية « بالقفشات الدباغية » حتى أصبح « الدبغ » كلمة فى اللغة الدارجة تطلق على النهم ، وقد ظلت هذه الكلمة تحمل معناها

[illegible] عار إلى يومنا هذ . وأصبحنا نسمع من يقول عن أحد من الناس أنه [illegible] وهو لايعرف أصلا لهذه التسمية . .

[illegible] حكينا ما رأيناه من الشيخ الدباغ وما سمعناه من صديقه لصاحب [illegible] صحف الأسبوعية التى أولعت « بالقفش » له والتلفيق عليه . فقال : [illegible] ع به فتدعوه إلى طعام ، فإنما يكف الرجل يده عن الأكل وهو مشتاق [illegible] حض كلامنا ويغرر بالحاضرين فيقعون فى الشرك ، ويندمون حيث [illegible] ندم » .

[illegible] ـ ونحن معاصرون لصاحب الشهرة ومن شهروه بها ـ أى القولين [illegible] ى القفشات يعتمد على الواقع وأيها يستمد من الفكاهة والخيال . .

[illegible] شتهر رجل آخر فى تلك الآونة بالمبالغة فى الادعاء ـ أى بالفشر كما [illegible] فى اللهجة البلدية ـ وكان حقا يدعى ويبالغ فى دعواه ، وكان ظريفا [illegible] تخلص من المأزق إذا امتحن بمن يتعقبه بالنقد والسخرية ، وكان إلى [illegible] على يسار يطمع فيه طلاب الاشتراكات للصحف الأسبوعية فى ذلك [illegible] امتلأت هذه الصحف بدعاويه وبالدعاوى المقيسة عليها مع التوسع [illegible] ، وأصبح اسمه كذلك علما على « الفشر » يكاد يلغى هذه الكلمة [illegible] متأصلة فى الأقوال والأقاويل .

[illegible] غرابة فى نشأة النوادر الجحوية سواء صحت نسبتها أو لم يصح منها إلا

[illegible] جاء فى الكتب العربية من هذه « الجحويات » فلا غرابة فى نشأته . [illegible] فيه من كل وجه إلا فى التناقض بين الغفلة والتغافل فى أخبار [illegible] حد . ولاسيما الأخبار التى تتحقق صفات صاحبها ويثبت أنه من [illegible] سلوبين الذين لايحسنون تدبير « التغافل » ولاتجىء منهم الحكمة إلا [illegible] مقصودة فى القليل من الأحايين .

[illegible] نصر الدين التركى

[illegible] التركى المسمى بالخوجة نصر الدين فالمنسوب إليه يملأ مئات [illegible] بين أيدينا كتاب بالتركية مطبوع فى الاستانة بالحرف الدقيق (سنة ١١١١ هجرية) يقع فى مائتى صفحة وخمس وخمسين ولايستعب كل ما نسب [illegible] إلى خوجة نصر الدين من نوادر الحكمة أو نوادر الغفلة والبلاهة .

[illegible] الذى لاشك فيه أن كثيرا من هذه النوادر وضعت بالتركية ولم تنقل

عن العربية ، وأنها ترجع إلى شخص عاش فى بلاد الترك ولم تكن نشأته على الأقل فى بلاد أخرى .

ويدعونا إلى الجزم بذلك أن النوادر تشتمل على جناس يوجد فى الألفاظ التركية ولايوجد فى ألفاظ لغة أخرى ، كالجناس بين جل وكل فى نادرة المسامير والخطوط مع لفظ الكاف كما تلفظ الجيم فى بعض الكلمات ، والجناس بين جمع أيوب وكلمة « ايب » بمعنى حبل فى نادرة يحذر فيها الخوجة نصر الدين أبناء بلده من الإفراط فى تسمية أبنائهم باسم أيوب ، أو كالجناس فى الاصطلاح على تسمية المطر بالرحمة وقولهم عن نزول المطر أنه رحمة نزلت « رحمة انيور » من عند الله .

ويدعونا إلى الجزم بتأليف الترك لكثير من هذه النوادر أنها تذكر المدن والأقاليم فى آسيا الصغرى وما جاورها بخصائصها المشهورة إلى هذه الأيام . .

ويرجع لدينا أن نصر الدين شخصية تركية غير منقولة عن الأمم الأخرى أنه نشأ فى آسيا الصغرى حيث تنتشر جماعات الدراويش الدينيين من قبل الإسلام ، وحيث يعهد فى آحاد من هؤلاء الدراويش أن يخلطوا خلط المجاذيب ويفتوا فتوى العلماء والفقهاء ، وأن يلوذوا بمظاهر التخليط أحيانا بغية السلامة من بطش الحكام المغيرين على البلاد ، وقد يلوذ بهم عامة الناس إيمانا بكراماتهم وشفاعتهم ليدفعوا عنهم مظالم الطغاة ، فيحتالون على استرضاء الظالم بالفكاهة أو بالوعظ المقبول أو بالتخليط الذى ينالون به ما طلبوه من الحاكم إذا أضحكوه واستطاعوا فى وقت واحد أن يلمسوا فى نفسه موطن التقوى والخوف من الله ومواطن الرضا والسرور .

* * *

والخوجة نصر الدين مشهور بكراماته وكرامات ضريحة فى مقبرة « آق شهر » بعد وفاته بزمن طويل ، ويذكر الناس أضاحيكه فيضحكون منها ولكنهم يحيلونها إلى حالات أهل الجذب بين عالم الأسرار وعالم العيان ، أو يحيلونها إلى حب التقية والاحتيال على الموعظة الحسنة بالأسلوب الذى يؤدى إلى مرماه ويعفيه من عقباه .

والشك الأكبر إنما يعرض لهذه السيرة من أطباق النوادر الكثيرة فيها على اجتماع الخوجة نصر الدين بتيمورلنك أثناء غزوته لبلاد الروم ، والمشهور أن الخوجة نصر الدين توفى سنة ٦٧٣ أو سنة ٦٨٣ هجرية ، فهو قد توفى قبل مولد تيمورلنك بأكثر من نصف قرن ، ولا يعقل أنه رآه وحضر مجالسه إلا إذا كانت وفاته حوالى سنة (١٤٠٥ م) التى توفى فيها تيمور

ولايسهل التوفيق بين هذه الروايات إلا على فرض من فرضين : أحدهما خطأ المتأخرين فى تعيين السنة التى توفى فيها الخوجة نصر الدين ، والثانى أن تيمور لنك لقى شيخا آخر على شاكلة الخوجة نصر الدين فتداخلت الروايات وعلقت البقية الباقية منها بالاسم المشهور .

وأيا كان صواب النسبة فى بعض النوادر التى تحتمل الخلاف فهناك جملة من النوادر لا اختلاف فى وضعها بعد عصر تيمور لنك وبعد العصر المفروض للخوجة نصر الدين . وهى النوادر التى وردت فيها الاشارة إلى المخترعات الحديثة كالبندقية وساعة الجيب ، أو كالنوادر التى تكذبها وقائع التاريخ العثمانى وتاريخ آسيا الصغرى على الخصوص .

* * *

ومن الواجب أن نسلم ـ بداءة ـ بوضع العدد الأكبر من النوادر التركية أو نقلها من رواة الأمم الأخرى ، لأن حصولها كلها من رجل واحد أمر لايسيغه العقل ولايروى له نظير فى السوابق التاريخية ، فلو أن هذا الرجل عاش ليخلق تلك النوادر وعاش الناس معه ليسجلوها لما اجتمع من أضاحيكه تلك المئات التى تملأ المجلدات ، ولا استطاع أن يأتى بما فيها من النقائص العقلية والخلقية . فضلا عن نقائص الجغرافيا والتاريخ .

فوضع العدد الأكبر من النوادر أمر مفروغ منه لايجوز أن يحتج به المحتج على بطلانها واختلافها من أصولها ، ولعل هذه النوادر الموضوعة أصح فى الدلالة على أزمنتها وبيئاتها من وقائع السجلات والأرقام .

قيل إن بين الجليل الرهيب والمضحك المغرب قيد شعرة أو لمحة عين . ولاشك فى هذه الحقيقة من الوجهة النفسية كما تقدم ، لأن الهول يتحول فجأة إلى الضحك بطارىء من طوارىء التغيير والتبديل التى تتعاقب فى أيام النصر والهزيمة والقيام والسقوط بين الجبابرة وأصحاب الدولات .

* * *

ولاشك فى هذه الحقيقة ـ أيضا ـ من الوجهة التاريخية إذا رجعنا إلى عصر تيمور لنك وأشباهه فى تواريخ المشرق والمغرب ، فليس أحفل بالأضاحيك من عصور التقلب وعصور الشدائد والأهوال .

وظاهرة أخرى من الظواهر الناطقة فى النوادر الموضوعة تنبئنا عن زمانها الذى فشت فيه وشاع اختراعها بين جميع الطبقات .

فمنذ القرن السادس للهجرة (والثانى عشر للميلاد) هبطت المعرفة من ذروة الكرامة وأصبح العارف الأريب من يحتال على رزقه بالمجون والمنادمة والتحامق والتشبيه بالجهلاء وأصحاب الجدود من ضعاف العقول ، وشاع القول « بحرفة الأدب » مغنية عن القول ببؤس العالم الأديب . .

فى أوائل هذا العهد ظهرت مقامات الحريرى التى يجمع بطلها بين البؤس والبلاغة والبراعة فى الحيلة ، وفيها تواتر النظم فى شكوى الزمان مقرونة بشكوى الأدب والعجب من قسمة الأرزاق ، وهذه هى الناحية الأدبية من تلك الشكايات وتلك الحيل « الإنشائية » أو الفنية ، وأما الناحية الاجتماعية العامة فآيتها هذه النوادر التى تعد بالمئات ولاتظهر فيها براعة اللبيب الأريب إلا فى الاحتيال على أكلة أو فى الاحتيال على دفع المحتالين الطامعين فى قوته الهزيل .

* * *

وبين قصص جحا قصة عن تقسيم الأرزاق يسأل فيها جحا من ندبوه للقسمة هل يريدون قسمة الله أو قسمة العبيد . فلما حكموه فى توزيع الحظوظ بينهم على قسمة الله أعطى هذا ما لم يعط ذاك وفاوت بينهم أكبر المفاوتة فى الأقسام ، وما كانت هذه النوادر لتشيع بين العامة من رواة « الجحويات » لو لم تكن لها مصادرها المتواترة من بعيد .

على أن النوادر « الطعامية » تنم على وجه خاص عن سذاجة فى الحيلة ترجع نسبتها إلى طوائف المحرومين من الجهلاء الذين يتأسون بذوى المعرفة والتقى ولاتسعفهم القدرة على الاختراع . فغاية جهدهم هذا الذى ابتدعوه وأحبوا تعظيمه وتحقيق الأسوة فيه بنسبته إلى العارفين ، وجاءت هذه النوادر الطعامية مجاوبة للمقامات الإنشائية وللقصائد المنظومة فى شكوى الزمان والعجب من قسمة الأرزاق ، ولم يعرف هذا كله فى عصر من عصور الشرق كما عرف بعد القرن السادس للهجرة ، وبعد إدبار الدولة العباسية ، واجتياح تيمور لنك للعالم الشرقى من تخوم الصين إلى شواطىء بلاد الروم .

* * *

ونودع الآن جحا والجحويات ونحن نحمد للضاحك المضحك ، أنه أعار اسمه عامدا وغير عامد لباب من الدراسة النفسانية والاجتماعية لم يكن ميسورا لنا بغيره ، ولن يبخسه شيئا من الحمد أن يكون على وفاق مع التاريخ أو على افتراق من كل تاريخ .

فهرس

من مؤلفات عملاق الأدب العربى الكاتب الكبير
عباس محمود العقاد

١ ـ الله
٢ ـ إبراهيم أبو الأنبياء
٣ ـ مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية
٤ ـ عبقرية محمد ﷺ
٥ ـ عبقرية عمر
٦ ـ عبقرية الإمام على بن أبى طالب
٧ ـ عبقرية خالد
٨ ـ حياة المسيح
٩ ـ ذو النورين عثمان بن عفان
١٠ ـ عمرو بن العاص
١١ ـ معاوية بن أبى سفيان
١٢ ـ داعى السماء بلال بن رباح
١٣ ـ أبو الشهداء الحسين بن على
١٤ ـ فاطمة الزهراء والفاطميون
١٥ ـ هذه الشجرة
١٦ ـ إبليس
١٧ ـ جحا الضاحك المضحك
١٨ ـ أبو نواس
١٩ ـ الإنسان فى القرآن
٢٠ ـ المرأة فى القرآن
٢١ ـ عبقرى الإصلاح والتعليم الإمام محمدعبده
٢٢ ـ سعد زغلول زعيم الثورة
٢٣ ـ روح عظيم المهاتما غاندى
٢٤ ـ عبدالرحمن الكواكبى
٢٥ ـ رجعة أبى العلاء
٢٦ ـ رجال عرفتهم
٢٧ ـ سارة
٢٨ ـ الإسلام دعوة عالمية
٢٩ ـ الإسلام فى القرن العشرين
٣٠ ـ مايقال عن الإسلام
٣١ ـ حقائق الإسلام وأباطيل خصومه
٣٢ ـ التفكير فريضة إسلامية
٣٣ ـ الفلسفة القرآنية
٣٤ ـ الديمقراطية فى الإسلام
٣٥ ـ أثر العرب فى الحضارة الأوروبية
٣٦ ـ الثقافة العربية
٣٧ ـ اللغة الشاعرة
٣٨ ـ شعراء مصر وبيئاتهم
٣٩ ـ أشتات مجتمعات
٤٠ ـ حياة قلم
٤١ ـ خلاصة اليومية والشذور
٤٢ ـ مذهب ذوى العاهات
٤٣ ـ لا شيوعية ولا استعمار
٤٤ ـ الشيوعية والإنسانية
٤٥ ـ الصهيونية العالمية
٤٦ ـ أسوان
٤٧ ـ أنا
٤٨ ـ عبقرية الصديق
٤٩ ـ الصديقة بنت الصديق
٥٠ ـ الإسلام والحضارة الإنسانية
٥١ ـ مجمع الأحياء
٥٢ ـ الحكم المطلق
٥٣ ـ يوميات جزء أول
٥٤ ـ يوميات جزء ثانى
٥٥ ـ عالم السدود والقيود
٥٦ ـ مع عاهل الجزيرة العربية
٥٧ ـ مواقف وقضايا فى الأدب والسياسة
٥٨ ـ دراسات فى المذاهب الأدبية والاجتماعية
٥٩ ـ آراء فى الأدب والفنون
٦٠ ـ بحوث فى اللغة والأدب
٦١ ـ خواطر فى الفن والقصة
٦٢ ـ دين وفن وفلسفة
٦٣ ـ فنون وشجون
٦٤ ـ قيم ومعايير
٦٥ ـ ديوان فى الأدب والنقد
٦٦ ـ عبد القلم
٦٧ ـ ردود وحدود